السبيل لانقاذ الحضارة

✫

نحن في عصر العلم والاختراع ، عصر المحيرات والمعجزات . فقد استغل العلماء الطبيعة الى حدود بعيدة فنشأ عن هذا الاستغلال انقلاب خطير في المرافق والاوضاع ودخل في جميع نواحي الحياة الصغير منها والكبير الجسيم منها والتافه واصبح الانسان يعيش في جواء من الاعاجيب ويسير في ركابه في شتى الميادين تحيط به الاكتشافات من كل جانب وتهيمن عليه الاختراعات من جميع الجوانب

لقد اقام الغرب حياته وما يحيطها على اسس من العلم فاخضع الزراعة والتجارة والصناعة والاقتصاد والسياسة له وجعلها تدين لمآربه وغاياته .

وهو لم يقف امام السدود بل تعدى الحدود فدرس الشرق دراسة عميقة وخبر احواله فاذا هو يرى ان من حقه الاستعمار والاستغلال كما يستغل الارض ويستعمرها واذا هو يستغل الشرق ويستعمره كالحديد والنحاس ويسخره للمصالح والغايات . والشرق باق يجفل من الاندفاع ويتردد في التقدم ذلك لانه لم يعط للعلم قيمته ولم يقدر اثره وحيويته فبقي بعيداً عنه لم يسر في الحياة على اساسه ، غير مدرك ان (العلم) من اسس النهوض والارتقاء وان لا كيان لشعب لا يؤسس نشاطه على قواعده وانظمته . لكن الغرب وقد طبع المدنية بطابع العلم وادخله في صميم حياته قد اخطأ الحساب فاذا التقدم في ناحية والجمود او التأخر في ناحية .

تقدم في العلم وتأخر في المعنويات والروحيات كما أعلى من شأن العقل والعلم علواً كبيراً وحكم العقل في القلب واهمل قوى الروح فكان ما نراه من افلاس المدنية وعجزها في كبح جماح الغرائز والمطامع والشهوات .

ومن هنا يتجلى ان الامم لا تصلح بالعلم وحده وان التقدم في الاختراع والاكتشاف لم ينج الانسانية مما احاق بها من مصائب وويلات بل الواقع ان هذا التقدم في المادية زاد المشاكل تعقيداً وسلب العالم راحة البال وطمأنينة النفس ، واثبتت الاوضاع ان التقدم العلمي وحده لم يستطع تثقيف الرغبات والنوازع الانسانية وهو يهدد بزوال ما بقي من معالم الحضارة وآثار الفكر والعقل . ويرى فريق من كبار المفكرين ان الانسان اذا استمر في عجزه في ادماج العلم باغراض الروح والخلق فستبقى قوى العلم في اتجاهها نحو التدمير والهدم وتزيد المشاكل وتتضاعف المتاعب فلا يخرج من محنة الا ويجابه محنة اشد وانكى فلا راحة ولا امان ولا سلام ولا اطمئنان .

اعلموا ايها الشباب ان العلم وحده لا يكفي ، وان العلم يجب ان يقوم على عناصر روحية ومعنوية ، وان الحضارة التي لا توفق بين العلم والروح حضارة فاشلة نهايتها الافلاس والانهيار .

خذوا من الغرب علمه وزيدوا عليه في التوفيق بينه وبين الروح ، والملائمة بين العقل والقلب .

احفظوا قوة العلم ضمن سياج الروح لتجنوا منه قوى الخير والبناء والاثمار .

ايها الشباب ، ليس العلم كل شيء في هذا الوجود . وليس الخلق والمعنويات كل شيء في هذا الوجود . سيروا العلم مع القلب والعقل مع الايمان . بذلك تنقذون الحضارة من الانهيار والدمار وتقضون على الفوضى في الخلق والاوضاع .

اعلموا ان اغزر الناس حياة اعمقهم تفكيراً وانبلهم شعوراً واصلحهم عملاً فكونوا من هؤلاء .

وليكن شعاركم ان العلم لا يزكو ولا يصبح اداة خير وبناء واصلاح الا على اساس من الروح والخلق العالي .

وان الجماعة انما تصلح بالخلق والضمير والعلم . وان الرجل العظيم هو الذي يرشد بالمعرفة والعطف لا من يستفز بالتحكم والعنف . وان اعظم الجماعات اقواها قلباً واحياها ضميراً . .

نابلس — قدري حافظ طوقان

قصة الموسيقى العربية

بقلم خليل الهنداوي

☆

بؤلمني جداً ألا تجد الموسيقى العربية نصيباً كبيراً من البحث في الادب العربي . كأننا نحكم عليها بأنها لم تكن من خطر الشأن او سعة المنزلة بمكـان . على ان من يرجع الى مصادر هذا الفن ، ويرى بصورة خاصة — الكتـاب الادبي الاكبر ، (الاغاني) يدرك انه ليس من عبث ألف صاحب هذا الكتاب كتابه ، ووسمه بالاغاني ، وصنف شعر الشعراء ، ووضع سيرهم بحسب الاصوات التي اشتهر بها شعرهم . فاذا بلغ هـذا الفن — مثل هذا المدى من الخطر والشهرة والتأثير — فلماذا يهمل دراسته ، ولماذا لا يُعنى به كأثر قيم . واذا وجدنا ان الجو الغنائي كان اكثر عبقاً وطيباً — في العصر الاموي حكمنا بأن الشعر العربي مشى نحو الرقة والتوشية في العصر الاموي حين بدأ المغنون يغنون به . وهذا الحكم يقوى ويثبت حين نعود الى دراسة الغزل الذي كان يشيع في هذه الحياة الجديدة التي انبثت في الحجاز واطرافه . وهنـا يذكر المؤرخون انهم لم يعرفوا عصراً انتشر فيه المغنون ، وشاع فيه الغناء مثل العصر الاموي .

وكتاب الاغاني يذكر لنا جملة — ليست بالقليلة — من هؤلاء المغنين ، ومن هذه الاصوات المختلفة . ولكنه يضعها وضعاً فنياً يتلاءم مع فن ذلك العصر ، ولا يتلاءم مع قواعد فننا الحديثة . ولذلك اصبحت قراءتها ، والوصول الى تفهمها كقراءة لغة قديمة مجهولة الاصول . وبذلك انقطع ما بين غنائنا اليوم وغناء الامس ، وبين مغني هذا العصر ومغني ذلك العصر . على ان هذه القراءة ، واستخراج هذه الالحان تبقى متعلقة بأهل الفن أنفسهم ، امـا الادب فهو يبحث هذه العلائق ، ويستخرج دلالاتها مما بقي من حياتهم ، وكلماتهم واهوائهم . والذي يعود الى هـذه المراجع ويتعمق في دراستها يطلع على كثير من اسباب الموسيقى العربية التي ضاعت معالمها اليوم ، واختلط امرها حتى اصبحت لا وجـه لها يعرف ، ولا صوت يسمع . لانها غدت لحناً مزيجاً تتمثل فيه اصوات أمم مختلفة ممن غزاهم العرب ، او تواردوا على هـذه البلاد حتى اضحت المقامات الموسيقية تدعى باسماء أجنبية .

على ان هذا المزج كان ضرورة من الضرورات لانـه لا يمكن دفعه . لان العرب انفسهم لم تكن آلاتهم الموسيقيـة الا آلات ابتدائية ، وألحانهم الا الحاناً ابتدائية . فلمـا خرجوا الى الامم المترفة التي يتمثل فيها الفن والموسيقى ، اقتبسوا هذه الآلات وهذه الاصوات على ان يجعلوها مطبوعـة بطابعهم القومي والعنصري . ولكن أنفة العربي من هذه الصنعة شجعت الموالي والجواري على ان يأخذوا بهذا الفن ، ويبرزوا للناس في مجالس الغناء . وان يحملوا اليها من روحهم ، وثقافتهم الشيء الكثير . فكان من ذلك ان الموسيقى العربية تقلبت عليها الوان كثيرة ، والحان متباينة وزعتها بين العرب وغير العرب ، وطرب لهـا اقوام مختلفون . بل لقد اختلط الامر حتى لم يعد ، بوسع اهـل الفن ، ان يميزوا بين اصالة هذه الالحان المتشابكة . على ان هذا المزج الذي حمـله الجواري او الموالي الى الفن العربي اذا افاد في تثقيف هذه الالحان ، من ناحية ، فانه قـد اضر ضرراً بالغاً من ناحية ثانيـة ، لان الكثرة من الحانهم كانت تخاطب الجانب المادي من الانسان . وتهمل الجانب الروحي فشاع — بذلك — او غلب على الموسيقى العربية هذا الضرب الحسي . فاذا طربنا كان طربنـا طرباً حسياً ، واذا اكتأبنا جاء اكتئابنا حسياً . لا ننفذ — فيه — الى اعماق النفس الانسانية ، ولا نحاول ان نصور ما في طواياها من آمال وآلام !

ولا تزال — هذه السطحية الحسية — تغلب علينا في موسيقانا اليوم. لان الملحنين عندنا اما مقلد يسرق من هنا قطعة، ومن هناك صوتاً. واما جاهل لا يمتد له طرف في هـذا الفن. وهم يجهلون هذه الموسيقى التصويرية التي تحاول ان تعبر عن خفـايا النفس البشرية، بل تذهب من هذه المحاولة الى ابعد مدى لان الملحنين العالميين يرون ان فنهم اعمق من الشعر واقدر في التعبير عن هذه الخفايا. وأين آفاق اللغة الواضحة من اللغـة المبهمة ؟

وان اعجب فعجبي من مسايرة الغناء لادبنـا القديم، حتى اصبح لا يلم بهذا الفن الا من صح ادبه، واستقام ذوقـه فهماً وتقديراً. ومن المغنين الشاعر الحاذق كاسحاق الموصلي او المتذوق المرهف الحس الذي لا يتغنى بمـا يتغنى به كالمردد لما لا يفهم. والذي يتتبع نهضة الغناء يشعر بما كان يثور في انفس الشعراء من طرب وخفة حين يسمعون شعرهم ينشد في مجالس الغناء. ومنهم من يستخفه ذلك، فيذهب الى مغنيه ليعيد عليـه ما لحنه له ويستمرىء لذة ما ابدعه مرة ثانية بطريقة ثانية. لان اللحن عندي يفتح للآذان آفاقاً حديثة كما يفتـح المشهد للعين آفاقاً ترى ولا ترى من هذا الوجود. لهؤلاء المغنين مذاهبهم في التلحين، وحب الكلام وفق ما يتطلبه الصوت. بل اني اذهب الى ابعد من هذا، فأقول: ان هنالك مدارس اشتهر بها مغنون، يصرفون الحانهم بحسب اذواقهم الشخصية، هذه الاذواق التي لم يبق ما يدل عليها الا بعض اقوال ذهبت في تضاعيف السير.

هذه المدارس منهـا ما نشأ في العصر الاموي، وكان يغلب عليها الجد والرصانة. ومنهـا ما نشأ في العصر العباسي حيث اقتحمت الغناء العربي عناصر اجنبية ارادت ان توفق بين الاذواق المختلفة التي يجمعها صعيد واحد. ولكنها لم تخرج في كل ذلك عن عمود الغناء الذي يرجع تارة الى قواعد كلاسيكية قديـمة، وتارة يستخدم قواعد ابداعية جديدة لا تحس لها نشوزاً او نفوراً. وفي ذلك العصر ذاته نجد ان آلات العزف اصبحت تتعدد من جنس واحد كأنها تؤلف بحسب الفن الحديث جوقة موسيقية متلاقة.

وآراني — بهذه المناسبة — اريـد ان اقول في امر الذين يعارضون اليوم في اقتباس العزف الغربي للعزف العربي، بحجة ان هنالك ذوقاً متنافراً يأبى هذا النوع من العزف الذي لا تهضمه اذواقنا، وبه يفسد ما ورثناه من روحنا الموسيقية: هل يستطيع هؤلاء المعارضون ان يثبتوا لي ان ما نحن عليه من عزف هو لحن عربي خالص! وهم بعد ذلك هـل يستطيعون ان ينكروا ان عزفنـا قد لقحه العزف الفارسي الآري والتركي وسواهما؟ فتلاقى وتواشج على صعيد الغناء هذان الذوقان المختلفان وولدا كما ولدا في الشعر والادب؟ فاذا جاز لنا ان نقتبس اللحن الفارسي فلماذا لا يجوز لنا اقتباس العزف الغربي وهما من نبعـة واحدة؟

ولنا في أمة — كالامة الروسية — مثـل كبير على حسن الاقتباس. فهذه الامة تشتبك حدودهـا بالشرق من جانب، وبالغرب من جانب آخر .... وهي الى الشرق القصي حينـاً، والى الغرب البعيد حيناً. وان لها من الموسيقى الواناً ممتزجـة تعبر بها عن روحها وامتدادها. بل طالما عبر فنانوها عن مواضيع شرقية محضة بهذا الاسلوب الموسيقي الغربي المتاوجـة ألحانه. وانك لن تستطيع ان تقدر بأن هذه المواضيع الشرقية – لو عبروا بها باسلوب شرقي لما باءت الا بالخيبة. لان الموسيقى التصويريـة واحدة في جميع الامم، لانها لغة اعلى من لغة اللسان التي تبددت في بابل ولم تجتمع بعد ذلك في «بابل» ثانية!

خذوا «رمسكي» الموسيقي الروسي في قطعه الشرقية في «شهر زاد – مثلاً – وعنترة! اي عالم يتماوج تحت هذه الاوتار؟ اي سحر يغمر الشرق من الحانه؟.

فلماذا لا يقدر الموسيقيون عندنا على استنطاق الموسيقى التصويرية بهذا الاسلوب؟ بل لماذا لا يدرسون هذه الاساليب؟

انني جد يائس من اية نهضة موسيقية لا تقوم الا على الفهم العميق والجد المثمر، والذوق المهذب ولا ينبغي لنا ان نعلل — قصورنا وعجزنا في هذه الناحية باسباب قومية هي عند الجدل حجج اوهى من خيوط العنكبوت. واذا كانت الموسيقى عاملاً من جملة العوامل في تهذيب الذوق الاجتماعي فاننا لن نجد لها هذا الاثر ما دمنا نجهل الموسيقى التصويرية التي تعبر عن هواجس النفوس. ويبدو لي ان اوائلنا في الغناء كانوا ارهف ذوقاً، وأميل الى تفهم دقائق الموسيقى بفضل نضجهم الادبي، وذوقهم النامي، وجنوحهم الى الدرس بحجة ان هذه الاقوال المبثوثة، تدل على ما كان يتمتع به هؤلاء الفنانون من ثقافه فنية ممتازة، لا يتمتع بمثلها، فنانونا المحدثون. فهم ابعد شيء عن الجهد، واكثر شيء تعلقاً بالتقليد والتجمد. ان الموسيقى فن جاء ليعبر عن خوالج النفس وعوالمها الخفية التي لا يستطيع اي كان من الوصول اليهـا. فهاتوا الموسيقى التصويرية لانها وحدها العميقة، ما دامت تصل النفس بالوجود!

حلب خليل هنداوي

ابس التنويم * المجال الوحيد الذي يمكن الطبيب فيه ان يساعد القضاء بل هناك حوادث الاجرام العديدة وكثيراً ما اقلق القضاة تدخل الطبيب فيها ، وكلما قال الطبيب الشرعي برفع المسؤولية عن القاتل او بتخفيفها قامت قيامة الكتّاب على العلم الحديث الذي يريد ان يجرد العدالة من سلاحها ويزعزع نظم المجتمع الانساني . والعامة الذين يحكّمون العاطفة بدلا من العقل يصعب عليهم ازاء بعض الحوادث التي تنفر منها النفوس وتقشعر لها الابدان ان يرضوا بحكم الاطباء الشرعيين الرامي الى تخفيف المسؤولية . فما تكون هذه المسؤولية التي نريد انكارها بينا كل ما فينا يتمرد ويصرخ طالباً الانتقام ؟

نعم ان اعتبار المجرمين كالمرضى ونفي الارادة الحرة عنهم معناه الاعراض عن القصاص واستعمال العلاج بدلا منه وفي هذا من الغرابة ما فيه اذا رأينا البَون النازح والفرق الفاضح بين مقتل رجل بري، ومعالجة قاتله بالماء .

لا ريب ان الطب الشرعي قد بلغ درجة قصوى من الارتقاء وفي وسعه ان يكون مناراً للقضاء وواسطة لمعرفة الجريمة وتحديد تاريخ وقوعها وطبيعتها ومختلف اطوارها . ولكن ما شأنه للتدخل في الجرائم الكبرى وما فضيلة هذا الانتصار الذي يحرزه عندما يكتشف ان هذا القاتل ابن



بقلم الدكتور نقولا فياض

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

☆

بعض الناس . ويعرفون ان القتل او الانتحار لا يمكن ان ينجم عن حالة طبيعية في النفس او العقل ولا يمكن من الوجهة الفلسفية ان نجعل المرء مسؤولا عن آفات الدماغ ووظائفه اكثر مما هو مسؤول عن اختلال وظائف القلب والرئتين مع هذا الفرق ان المصاب مثلا باحتقان في الصدر لا يخيف بينما الشقي المندفع باهوائه قد يؤذي غيره في ماله وفي حياته .

قلما تجد اليوم بين الفلاسفة والعلماء من يقول بالارادة الحرة كما كان يفهمها الاقدمون فالاثيم والمجرم يُحسبان من المرضى لان ارادتهم اضعف من ان تكبح جماح اهوائهم او تعصي نفسهم الامارة بالسوء . واكثر المجرمين محكوم عليهم بالوراثة والبيئة ان يكونوا كذلك فهم من سلالة المصابين بالصرع والمبتلين بالزهري والمدمنين على الخمر ، يعيشون في جهل للخير واستعداد للشر المعدي وليس في هذا كله ما يسمح لهم ان يختاروا طرق الفضيلة بملء حرية الاختيار وقد تبين بالاحصاء ان قسماً كبيراً من المحكوم عليهم احكاماً قاسية يعيشون كالمرضى وكل يوم يشهد الباحث انتقال المجانين من السجون الى المستشفيات . كل هذا يدعونا الى الاستنتاج ان حلة الماضي في جهازه البسيكولوجي اصبحت بالية ولا بأس من هذا الاستنتاج ما دمنا عملياً نقول بوجوب حماية المجتمع .

اسكير مدمن على الخمر وان اخاه مصاب بداء الصرع . انه بذلك يجرد المدعي العام من سلاحه ويقلم اظافر العقاب الواجب ويحول دون مدافعة المجتمع عن نفسه وكل ذلك من اجل عواطف انسانية في غير محلها كان الاولى ان نخص بها في الاول اهل الصلاح المهددين في سلامتهم ، وراحتهم ليل نهار .

هذا اعتراض وجيه يستحق ان نجيب عليه . الاطباء في الغالب ابعد الناس عن الخيال والاحلام من الوجهة الانسانية وهم يعرفون حق المجتمع في الدفاع عن نفسه ضد كل معتد ومجرم . وكلهم على اتفاق للتمييز بين المسؤولية الادبية والمسؤولية الشرعية ، بين عقيدة علمية وحاجة طبيعية لحماية بعض الناس من

* راجع الاديب عدد حزيران ١٩٦٦

وهنا يظهر اختلاف النظر بين الاطباء والقضاة فالقاضي يريد ان يحكم فيعاقب المجرم على نيته التي كانت للاذى ولانه جار بملء حريته عن قصد السبيل . هذه مهمته اليوم كما كانت بالامس وفي كل ازمنة التاريخ . هو يؤمن برسالته السامية ويعتقد انه يستطيع سبر اغوار النفس واماطة اللثام عن النيات الكامنة الغامضة دون الحاجة لمعرفة اسرار الدماغ ووظائفه لان فكرة العدالة في نظره هابطة الينا من اعالي السماء .

والواقع ان فكرة العدالة لم تحلم يوماً بهذا النسب الرفيع واصلها دون ذلك . وقد عرّف « لتره » العدالة بانها حاجتنا الى التوازن ولكن ما نعرفه اليوم من وظائف الدماغ يسمح لنا ان نتكلم عنها باوفى ما يكون من الدقة .

وللبيان ارجع بالقارىء الى اسطورة قايين وهابيل .

في تلك الايام كان الجهاز العصبي سليماً لم تفعل به بعد المؤثرات الخارجية وكان بسيطاً في تعبيره الذي نسميه اليوم ردالفعل على انه لا يزال في الحالة الحاضرة كالآلة يحول الى عمل ، الشعور الذي يتقبله الدماغ بواسطة اعصاب الحس .

عندما ضرب قايين هابيل اجاب هذا بالمثل وحوّل شعوره الى حركة ولكن قايين رد له الضربة وبما انه اقوى واشد لم يترك لهابيل واسطة للدفاع فوقع هذا على الارض مهشماً ولا سبيل له الى الانتقام على انه قد شعر بألم الضربة وهي اهتزاز شديد في الدماغ لم يستطع تحويله الى عمل كما هى العادة في كل شعور يعتريه . فرد الفعل الذي هو تعبير الدماغ عصبياً عن شعوره وقف عند هابيل دون الظهور وانقطع التوازن . وهذه الغصة التي انتابته لعجزه عن الانتقام ، هذا الصوت الخفي الذي كان يقول له مكانك ايها المسكين ، بينما كانت كل جوانحه تدعوه الى الحركة هو مبدأ فكرة الظلم التي سبقت فكرة العدالة فى الوجود ، ولم تنبت فكرة العدالة الا بعد ذلك عندما وجد المظلوم المقهور العاجز عن الدفاع ان خصمه القوي قد صرعه رجل آخر او افترسه وحش او اهوى عليه صخر فسحقه فقال في نفسه لقد نال ما يستحقه فتمثلت في رأسه فكرة العدالة متجسدة في المنقذ المنتقم .

ثم استحكمت هذه الفكرة بمرور الزمن عندما ارتقى الانسان في معارج العمران واصبح صاحب ملك ، الا ان بدايتها كانت بطريق سلبي اي كما قلنا بظهور فكرة الظلم اولا .

هذا هو اصل العدالة على ما اظن وكم جنحنا بها عن الصورة الشعرية التي تمثلها لنا آتية على اجنحة الحمائم العلوية .

وفي الواقع ان العدالة في المجتمع الحاضر هي دفاع وانتقام معاً وكلما شهدنا اعتداء فظيعاً تحركت بنا سورة الغضب والانتقام على الرغم من كل رقينا لاننا نخاف ان يكرر فنكون بعض ضحاياه .

فمهمة القضاء هي امان وجزاء وهذا امر انساني لا يحتمل الشك ولا يبعث على العجب غير اني اظن ان من الاجدر بالعصر الذي نحن فيه ان نترك عاطفة الانتقام ونكتفي بالمحافظة على الامان . ولا يفقد القضاء شيئاً من جلاله بهذا الموقف بل يكون قد وفق بينه وبين علم اليوم وفلسفته .

قد يقال اين تقودنا هذه الآراء ؟ ولكنها آراء لا تحدث ثورة شديدة في الاخلاق وهذه هي ميزة الحلول العلمية فهي تأتي تدريجاً دون رجة او دوي . على ان بعض العلماء اشد صلابة من سواهم فهم لا يعرفون درجات في المسؤوليه وكل مجرم في نظرهم عقل فاسد وما القاتل سوى مريض ومهما ابدى من الحيل ومظاهر الحرية الكاملة فهو غير حر لان اعظم المجانين قد يغرون بظواهرهم (او حركاتهم الخارجية) وهو قد ولد مجرماً وتركيبه التشريحي يجعل منه شقياً محكوماً عليه بان يؤذي ويضر وبما ان جرمه فظيع فالعقاب على قدر ما توحي هذه الفظاعة من الهول ولهذا يستحق الاعدام .

هذه النظرية لا تخلو من المنطق والحزم وهي تؤيد المذاهب الحديثه دون ان تهدم العادة القديمة لقد طوت صفحة المقدور ونقشت مكانها كلمة الوراثة وصاحب هذه الفكرة هو لومبروز حكيم تورينو من اعمال ايطاليا ولكن الفرنسيين لم يقبلوا بها اي ان الانسان لا يولد مجرماً ولذلك لا يجعلون المسؤولية واحدة لكل المجرمين .

ان كلمة ارادة حره لا معنى لها عندهم فلسفياً والعمل السيء لا يأتيه الانسان مختاراً بل مدفوعاً اليه بقوة لا تردها ارادته المريضة ولكن الحوادث يختلف بعضها عن بعض بحيث يتعذر قياسها بقياس واحد ولهذا يحسن تقسيم المسؤوليات والنيات الى درجات حسبما يكون التعمد والاستعداد السابق في ضمير المجرم وهكذا فان عدم المسؤولية او المسؤولية الكاملة او المخففة التي لا يقبلون بها فلسفياً هي ضروريات عملية كثيرة الاستعمال .

والى القارىء بعض الامثلة زيادة في الايضاح

هذا رجل مريض بالعصب تصيبه النوبة فيقوم ويمشي على غير هدى ويفيق من ذهوله بعد يومين فيجد نفسه في بلد مجهول لا يعرف كيف انتهى اليه وفي طريقه قد قتل او سرق او احرق مزرعة ولكنه يجهل كل هذا ولا يفهم ما يقوله الشهود .

وهذا آخر سكير يصاب بنوبة الهذيان الكحولي فيذبح زوجه لانها تتمثل لعينيه في صورة وحش يريد افتراسه ، وهذا آخر يتنابه عارض من الجنون الهائج فيقتل حارسه .

هؤلاء القتلة الثلاثة لا يمكن تشبيههم برجل يفكر طويلا فيما يريد ان يقدم عليه ويحسب حساباً للقتل ويقتل ليتمكن من السرقة . ومثل هذا لا يشفي غليل الناس ان يروه في المستشفى والله وحده يعلم اي الاربعة كان حراً اكثر من الباقين ليحسن او يسيء . ولكن كما نرى الحياة لا مندوحة لنا عن التفريق بينهم

ولا ريب ان رابعهم هو الذي يوحي الينا اكبر اشمئزاز لانه دبر امره تدبيراً بجرية فكر كاملة في الظاهر .

يحكى ان حارساً نام يوما في حالة من السكر الشديد فاستيقظ عند الفجر برؤية هائلة : رأى قطار السكة الحديدية داخلا عليه وهو يقذف شرراً ولهباً فاوجس خيفة وقبض على فأس عنده لقطع الاخشاب وضرب القطار ولم يكن القطار سوى احد رفقائه الذي جاء لزيارته فمات على الفور وقد ابى القضاة تصديق هذا الهذيان وحسبوه كذباً وخداعاً ولكن الطب استطاع ان يبرهن لهم امكانية ذلك في المدمنين على الخمر لامشاحة ان هذا الحادث يستلزم القول بعدم المسؤولية تماماً

وهذه حادثة اخرى لا يتضح الحكم فيها بهذه السهولة : سيدة انيقه المجلس جميلة الطلعة دخلت يوما على تاجر مجوهرات في باريس —على ما اذكر— واختارت عقداً من الماس ثميناً وطلبت من البائع ان يرسل معها من يثق به لتستشير زوجها فيه فان لم يستحسنه اعادته والا رجع الرجل بثمنه ولم ير البائع في ذلك ما يدعوه الى الرفض فذهبت مصحوبة بالرجل الى طبيب مشهور متوفر على معالجة الامراض العصبية هو Legrand du Saulle ودخلت عليه بعد ان تركت الرجل في غرفة الانتظار وقالت له ما معناه : لقد تركت في الخارج نسيباً لي تنتابه اعراض جنون ومن اجله جئت استشيرك فهو يتصور نفسه مستخدماً عند بائع حلي ويطلب ابداً عقداً من الماس يدعي ان امرأة سرقته منه ، وبما ان حضوري يؤثر به كثيراً فالافضل ان انسحب لتتمكن من فحصه فحصاً دقيقاً وسأعود بعد قليل .

وخرجت المرأة من باب اخر وأدخل الشاب فلما لم يجد المرأة صاح بالطبيب اين العقد فتبسم هذه ابتسامة اشفاق واخذ يلقي عليه الاسئلة المعتادة والمسكين لا يفهم ما يعني ويزداد صياحاً والحاحاً في طلب العقد والطبيب يحاول : تهدئته ويتابع السؤال عن صحته وصحة ابيه وامه وبعد لأي من جهد ادرك خطأه ولكن السارقة كانت أفلتت من جرادة العيار .

ان امرأة كهذه بارعة في تدبير الحيل هل يجوز ان تعد غير مسئولة وتعامل كالمريض ؟ لا ريب انها لم تكن سليمة الشعور ولكن تصرفها لا يسمح لنا ان نضعها في صف المصروع الذي حرق او السكير الذي قتل ولو حاول الطبيب الشرعي ان يخفف عنها بعض المسؤولية لتعذر عليه .

وجملة القول ان بين الاجرام والجنون علاقة متينة وفي كل يوم يكتشف الطبيب حالات مرضية غريبة لم تخطر على بال مما يهيب به الى التعرض للمسؤلية على غير ما يراه القاضي والذي ساعد على حفر هذه الهوة بين القضاة والاطباء هو « لومبروزو » القائل بان الانسان يولد مجرماً كما ذكرنا آنفاً . وقد انتشر مذهبه انتشاراً هائلاً يوم ظهوره واصاب من الشهرة في الاندية العلمية وغيرها قسطاً وافياً . ثم اخذ يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى ان لومبروزو نفسه اضطر فيما بعد الى الرجوع عنه . وكان كاتب هذه السطور من الذين اثرت بهم كثيراً اراء لومبروزو فنشرت في المقتطف بعد اطلاعي على كتابه « الرجل العبقري » مقالا بعنوان « الذكاء والجنون » وسألت المرحوم الدكتور صروف رأيه في الرجل ومذهبه فكتب الي ما معناه ان لومبروزو شديد المبالغة فيما يدعي ولا يمكن القبول بكل ما كتب . ولم اتبين صواب هذا الحكم الا بعد مرور الزمن . فما هي اليوم اراء الاختصاصيين المشهورين في الاجرام ؟

كان لومبروزو اول من اعلن ان السواد الاعظم من المجرمين والقتلة واللصوص والمتهتكين يحملون في اجسامهم اثار التقهقر وايد قوله بالاحصاءات العديدة التي تبين كيف ان سلالة المصروعين والمجانين ومدمني الخمر هي سلالة سقيمة ، مستعدة استعداداً فائقاً للجنوح عن قصد السبيل في حياة الاجتماع واستنتج من هذا ان بعض الناس يأتون الى الوجود حاملين جرثومة الشر والفساد وليس هذا فقط بل من المستحيل ان يكونوا غير مجرمين لانه يعتقد ان تركيبهم التشريحي الخاص يسيطر على تركيبهم الادبي ولا ندحة لهم عن ان يقتلوا يوما او يسرقوا . ذلك ما كتب لهم من قبل ان يولدوا ولا مناص من المكتوب الا اذا قضى عليهم عارض غير طبيعي فاماتهم قبل الاجل المحتوم .

وكانت السرعة التي امتدت بها شهرته وتعاظمت نذيراً بقرب زوالها على حد قول الشاعر : « ما طار طير وارتفع الا كما طار وقع » فكثر خصومه في فرنسا والمانيا وانكروا عليه دعواه لانه لا يوجد في نظرهم مثال تشريحي للذي يولد مجرما ، فضلاً عن ان المشاهدات اليومية تدل ان الانسان مهما يكن محملاً في نشأته من اعباء الوراثة المرضية او الفاسدة فالبيئة التي يعيش فيها والاحوال التي تكتنفه والهواء الذي يستنشقه والصور التي تلتقطها عيناه والعظات التي تنطبع في دماغه كل ذلك من العوامل القوية التي لا بد لها من تبديل ذاتيته من حال الى حال . ولنضرب مثلاً من الامثال رجلا يريد ان يسرق ويهم بذلك

يقال ان في اعماق ضمير هذا الرجل يجري حديث طويل واخذ ورد بين الرغبة والرهبة او بالاحرى هي مأساة تمثل على مسرح النفس الخفي الذي نسميه الارادة الحرة ابطالها الاحساسات القديمة والحديثة والصور العالقة بالذهن تجيء وتروح على المسرح ، تجيء وفي كل منها ما فيه من حيوية وقوة وميل كثير او قليل للتحول من شعور الى عمل ثم تذهب وقد سدل الستار . والممثل الاول الذي يظهر ، على المسرح هو التجربة بارزة في صورة السرقة وسهولتها تتولد بسرعة في عقل المثقل بالوراثة المرضية ا و سموم الكحول ويظهر الى جانبها شقاء الايام الماضية ومطل الراحة الآتية في ظلال الكسل السعيد . ثم يظهر ممثل آخر هو صورة الشرطي ومعها صورة القاضي والسجان والسجن وحينئذ يقوم صراع عنيف بين الفكرتين فكرة السرقة وفكرة العقاب فتختفي الى حين دوافع السوء في ظلمة الليل ثم تخرج اوضح مما كانت يقويها حب التقليد وتذكارات قديمة لرفقاء له في الكسل سرقوا ولم يقبض عليهم بل ربما ذكرت الجرائد اعمالهم مقرونة بالاعجاب وصاروا من الزعماء المحبوبين من النساء . هذه المرة يحمى وطيس المعركة بين الفكرتين وعبثاً تبدو على المسرح اشباح الخوف من الفشل او من العدالة ، وما يحس به الانسان من انقباض الصدر على عتبة كل جديد فان تغيرات الجو او استهزاء صديق لتردده او تجرع كاس من الخمر يكفي لارجاع هذه الاشباح الى مكمنها ويتهيج العقل فتصبح فكرة السرقة جلية كل الجلاء وتخنق كل افكار الخير وتمشي حرة الى النصر . وهكذا تعقد العزيمة ويقع الحادث المشئوم .

هذا مشهد من مشاهد تنازع البقاء يغلب القوي فيه الضعيف ويكون الشر اسبق من الخير لا لسبب سوى ان التربية لم تكن كافية وافية ولا شيء فيه مما يدل على ان الانسان يولد مجرماً . هذه التربية التي يمكنها مع البيئة اصلاح ما افسدته الوراثة ، وما ذكرت ينطبق على كل فتى والله يعلم ماذا كان مصيرنا نحن المتنعمين بالرقي لولا الارشاد والقدوة فحب التقليد من اعظم العوامل في الحياة وما دماغنا في الواقع سوى آلة لتقليد ما نرى . والمجرمون يحملون منذ الولادة فضلا عن الحدة وسرعة الغضب رخاوة في النفس وهشاشة في الشخصية تجعلهم قابلين للتأثر بمن حولهم وتقليدهم . ولهذا كانت عشرة السوء ومطالعة اخبار القتل في الجرائد ومجاورة السجون وغير ذلك عاملا قوياً في تحبيب الشر اليهم ولكن هذا لا يمنع ان تكون نفوسهم مستعدة ايضا العكس ذلك لو اتيح لهم معاشرة الفضلاء والاكتساب من اخلاقهم وعاداتهم .

يقولون اذا امتلأت المدارس فرغت السجون وهي حقيقة تؤيدها الفسيولوجيا لان الدماغ كلما زاد غذاؤه من المعرفة خف اندفاعه وكان له من العلم لجام لغرائز السوء . غير ان العلم وحده لا يكفي ولا بد من الادب والشعور الديني الذي يدعم الادب . وقد تبين من الاحصاءات التي جرت في صدر هذه المئة ان القتل والانتحار زاد في فرنسا مع انه في انكلترا قد اقفلت بعض السجون لعدم الحاجة اليها كما ذكر ذلك السرجون لبوك في المؤتمر الاشتراكي الذي عقد لذلك العهد . والسبب في زيادة الشر في فرنسا ونقصانه في انكلترا يعود في الاول الى الافراط في الكحول في فرنسا وفي الثاني الى تأصل الفكرة الدينية في الشعب البريطاني بينما كانت فرنسا تحاربها بجعل التعليم علمانياً محضاً . لا ريب ان الخوف من اليوم الاخير اكبر لاجم لمطامع البشر وشهواتهم ومهما يكن مذهب الانسان في التعليم ومناهجه فلا بد للشعب من دين ومن ادب ديني .

ولنرجع الى لومبروزو فنقول ان الرجل لا يولد مجرما ، لا قاتلا ولا لصا . يولد ودماغه سريع التهيج قابل التأثر وما الوراثة الا من الاسباب المساعدة على الشر وبالتربية الصحيحة الكافية والقدوة الصالحة يمكن التغلب عليها على شرط تشخيص الداء باكراً ، وجل ما يستطاع عمله في الحالة الحاضرة الاكثار من المستشفيات والملاجىء للاطفال المنكوبين .

نقولا فياض

نحن ومشاكل الغرب

بقلم جلال فاروق الشريف

☆

الامم لا تسير في حياتها وفق خط مستقيم وانما تنتابها فترات صعود واندفاع نحو تحقيق مثلها العليـا في الحياة ، بان تستجمع قواها وتعي . قدرتها وامكانياتها لتثب وثبة تشق بها لنفسها الطريق بين غيرها من الامم فتنتج وتبدع ، وتؤدي رسالة ، ثم تعود لتتقاص وتنحدر نتيجة لرد الفعل الذي احدثته هذه الوثبة بعد ان تكون قد تركت طابعها على كل ما انتجته وابدعته وما اعترض طريقها من حضارات وثقافات . ولصعود الامـة اوج تبلغه ، اما انحدارها فليس له حضيض تقف عنده اذا لم يحل حائل دون هذا الانحدار . وكما تحمل الامة بذور حياتها ، فانها تحمل ايضاً اسباب تأخرها وموتها ، فلا تكاد تثب تلك الوثبـة وتستنفد تلك الطاقة المدخرة ، حتى تضعف فيها حيويتها الكامنة وتبدأ اسباب الجمود والموت بالتساقط عليهـا ، فلا تستطيع ان تقاومها وتعود الى الحياة والصعود لتثب وثبـة اخرى وتؤدي رسالة جديدة الا اذا انبثقت من الامة فئة واعية وجيل جديـد يتصدى لانقاذ الامة بتصديه للانحـدار والعمل على الوقوف في وجهه وايقافه والتغلب عليه ، وذلك بوعي لحقيقة اسبابه ، وفهم لحقيقة المشاكل التي تجابهها الامة ، واعطائها الحل الصحيح ، ثم العمل على الصعود بها من جديد .

فمن هي هذه الفئة ؟ وما هي شروطهـا التي يجب ان تتوفر فيها ؟ وما هو موقف الامة والجيل الجديد من هـذه المشاكل ؟ نستطيع ان نجمل الكلام عن الجيل الجديـد فنقول ان مرحلة الانحدار في الامة تبدأ عندما تأخذ اخلاق الافراد ومثلهم العليا ، بالانفصال عن اخلاق الامة ومثلها (*) وعندما يبدأ هؤلاء الافراد بالتخلي عن مسؤولياتهم تجاهها نتيجة لعوامل مختلفة ، فالجيـل الجديد هو الفئة التي تحمل على عاتقهـا كل واجب يتخلى عنه صاحبه حتى لتصبح وحدها هي التي تحمل جميـع اعباء الامة ، وتأخذ على نفسها العهد باستمرار في السير بالامـة حتى يعود كل فرد الى حمل واجبه ومسؤوليته اللذين تخلى عنهما ، فتعود الامة الى الاستواء والصعود .

وهذا الجيل هو من الامة غير دخيل عليها ، مؤمن بماضيهـا ايمانه بحاضرها ومستقبلها ، قد ربط مصيره بمصيرها فـلا حياة له بدونها وكل قواه مبذولة لها عاملة في سبيلها .

اما المشاكل التي تعانيها الامة ويعالجها الجيل الجديد فتنشأ من اختلاف وضع الامم واختلاف المراحل التي تمر بها كل منها ، فالامم جميعها لا تمر في عصر واحد بحالات ومراحل واحدة ، ولا تكون حالاتها المختلفة التي تمر بها هي الحالات نفسها التي تمر بها كل امة منفردة في الزمن الذي مرت به بقية الامم .

ومع العلم بان الامم لا تندفع وتصعد ثم تنحدر وتتأخر في زمن واحد ، فانها ايضاً في الازمنة المختلفـة وغير المتساوية التي تمر بها ، لا ترسم خطوطاً موحدة متماثلة اثناء صعودها وهبوطها ، ولئن حدث وتعاصرت امتان في فترة اوج الاندفاع الذي تبلغانه فانهما لا تعبران تعبيراً واحداً عن المرحلة التي تمران بها ، فلكل واحدة منهما طريقتها الخاصة وشكلها الخاص في التعبير عن الاوج التي هي فيه .

ففي كل عصر تكون هناك امم في اوج تفتحها نحو عبقرية الابداع ، واخرى في حضيض العقم ، وغيرهـا في منتصف المرحلة ، تسير كل منها وفق منحاها الخاص بها الذي تحدده لهـا امكانياتها الحاضرة وتاريخها ونزوعها نحو المستقبل .

والاختلاف في هذه الخطوط والاتجاهات التي ترسمها لنفسها الامم ، يعود الى اختلاف مقدار الحيوية التي تتمتع بها كل منها ، والى اختلاف المؤثرات التي تتلقاها كما انه يعود ايضاً الى اختلاف

(*) راجع العدد السادس من الاديب . الفرد واخلاق الامة .

وضع كل من هذه الامم ، واختلاف المرحلة التي بلغتها كل منها عندما يكون المؤثر واحداً .

وكل هذه الفروق تجعل استجاباتها جميعاً للمؤثر الواحد مختلفة مما ينتج عنه اختلاف في قوة اندفاعها نحو تحقيق رسالتها ، وتباين في اشكال تحقيق هذه الرسالة ونوعها والزمن الذي تتحقق فيه .

فماضي كل امة يختلف عن ماضي غيرها من حيث عمقه واسترساله في التاريخ وتأصله فيه ، وهذا التفاوت يخلق تفاوتاً له اثره في فاعلية الامة ، لانها تتلقى مؤثراً روحياً ومادياً مختلفاً عن المؤثر الذي يفعل في غيرها . والامة او الامم التي تكون في الحضيض تخضع بصورة مباشرة او غير مباشرة ، ارادية او غير ارادية للمؤثرات التي تبعثها فيها تلك التي تكون في اوج الصعود ، ومن هذا الاختلاف في الوضع تنشأ جميع المشاكل التي تعانيها الامة المتأخرة ، والتي يجب على الجيل الجديد الناشىء فيها ان يعيها ويأخذ لنفسه منها موقفاً صحيحاً حاسما يعيد للامة نهضتها واندفاعها الجديد .

فالامم التي تكون في الحضيض او في بدء النهضة تعمل على تقليد تلك الامم الراقية تقليداً اعمى تحاول ان تستر به انحطاطها وضعفها ، وان تسبغ على نفسها مما ترتديه تلك الامم اثواباً لتبدو بزيها مشابهة لها في قوتها ، فتخدع نفسها وغيرها بظاهر القوة المزيفة هذه التي تبدو بها وهي تؤخذ بهذه المظاهر الخادعة فتعتقد ان نجاحها وتفوقها يكون بأن تبني على الاسس نفسها التي صاغتها لنفسها تلك الامم الراقية اركاناً لحياتها ، هذه الاسس التي هي نتيجة مباشرة لوضعها الخاص بها المتميز عن غيرها ، وتشرع بتبنيها واضفائها على نفسها مشوهة ممسوخة دون اي اهتمام بالفروق القائمة ، او اقامة اي وزن للاوضاع المختلفة لكل منها .

وهي لضعفها لا تستطيع ان تأخذ مناحي القوة التي قد ساعد على تحسين وضعها ، بل تلجأ الى مواضع اللين والترهل فتحسن اخذها وتحسن تطبيقها فتزيد في ضعفها وتأخرها تأخراً .

وتنتابها حمى التقليد في كل شيء فتغرق فيه اغراقاً يخيل اليها معه انها كلما امعنت فيه استطاعت ان تعلو على انحطاطها وتقاومه ، ولئن لحظت انها لم تستطع ان تسمو على واقعها الفاسد ، اعتقدت ان ذلك نتيجة لقصورها عن الاغراق بالتقليد وعدم اجادتها له ، فتمعن فيه من جديد وبذلك تكون قد اخذت تبتعد في الطريق الهابطة بدلا من ان تندفع في الطريق الصاعدة ، وكل هذا انما هو نتيجة طبيعية لهذا التبديل السطحي الذي احدثته في نفسها هذه الامم المقلدة ، هذا التبديل الذي زادها هزالا على ما هي عليه منه والذي هو احق بان يسمى بالتشكل الكاذب ان صحت التسمية ، ويكون واجب الجيل الجديد في هذه الحالة ان يحدد للامة وضعها ويعرفها بالمشاكل الناجمة عما تفيض به عليها الامم الراقية الصاعدة ثم يعين لها الحلول الصحيحة التي تتلاءم مع شخصية الامة ومع المرحلة التي تمر بها .

ولقد كان العرب في الاوج يمثلون النهضة والرقي عندما كان الغرب في الحضيض يمثل الانحطاط والتأخر ، الا ان هذا النور الذي بلغ اوج الائتلاق وكان مصدر الاشعاع الذي بهر الغرب فاندفع نحوه مقلداً يحاول ان يستقي منه ، ويبحث فيه عن مورد لنهضته ، لم يلبث ان بدأ يتضاءل حتى لم يعد يستطيع انارة نفسه .

اما الغرب فقد صعد حتى احتل الموضع الذي كان العرب فيه ، وبدأ يفيض عليهم كل يوم بجديد ، فامتدت اليه ابصارهم وغدا قبلة انظارهم والمثل الاعلى الذي تستمد منه النماذج

والامة العربية تعاصر اليوم هذه الحضاره الجديدة من حضارات التاريخ التي تحمل مشعلها الامم الغربية ، وهي في نهاية مرحلة الانحدار وبدء البعث والنهوض ، فهي غضبى ضعيفة في طور هلامي لم يأخذ طابعه المفقود ، فأقل طارىء قد يؤدي الى تشويه الشكل الحقيقي الذي يجب ان تتجلى فيه الامة العربية .

وهي الآن في طور الانفعال مع الحاضر والتاريخ قد ارسلت جذورها فيما حولها تستمد منها اسباب حياتها لتعيد لنفسها كيانها المفقود وطابعها الدارس ، ولا تزال عالقة بها شوائب عصور طويلة من الانحطاط والتأخر كانت في الماضي عوامل هدامة سببت انهيارها ، وهي اليوم حواجز عائقة تؤخر نهضتها .

والحضارة الغربية لا تفتر ابداً عن قذفها بسيل دافق من الانتاج العلمي والفلسفي والفني الامر الذي جعل الكثيرين من افراد هذه الامة يرون فيها وفي مبادئها واسس حياتها خير مثال يحتذى للتقليد فما هو موقفنا من كل هذا ؟

ان هذا السؤال تجيب عليه كثير من الاتجاهات المعروفة في البلاد العربية ، التي تبنت مبادىء الغرب وحاولة لمشاكل المجتمع العربي . ومما لا شك فيه ان للانقلاب الصناعي اثراً هاماً في توجيه الحضارة الغربية وجهات جديدة استتبعت تطوراً في المجتمع الغربي ادى الى سيطرة مبادىء توجه العالم وتشكل بعض المشكلة التي تعانيها الامة العربية ، لذلك لا بد من بيان حدود هذا الانقلاب الصناعي واثره ووضع الامة العربية بالنسبة له

دمشق — جلال فاروق الشريف

غابة المساء

عبد اللطيف شراره

صيدا

☆

☆



هدأت ، لكن هدوءٌ في اضطراب ... عندما طاف الدجى فوق الهضاب

ورنت تستشرفُ الكونَ فما ... أبصرت غيرتها ويل الضباب

اين ذاك الحسن هل طاح به ... ماردٌ . ام ضاع في قفرٍ يباب ؟

اين ذاك السحر كيف اندثرت ... رقة الفجر واحلامُ السحاب ؟

اين ذاك الألَقُ الطافحُ في ... صفحة المرج وأنحاء الروابي ؟

— لم يعد من ذلك الكون سوى ... شفقٍ مضطرم اللوعة خابي

يتراءى في جلالٍ غامضٍ ... مبهم الطلعة شفاف الحجاب

عُرُسُ النور تلاشى وانتهى ... فرحُ الدنيا بشجوٍ وانتحاب

فارتمت مرهقةً مغلولةً ... تتنزّى في انخذالٍ واكتئاب

يوغل الحزن بها مُعتسِفاً ... بين اصداء امانيها الكِذاب

ويعيثُ الوجدُ في مهجتها ... صاخباً في صمتها مثل العُباب

وهي ترثي نفسها ذاهلةً ... عن نجوم تتلالى في القباب

وعن النهر الذي ينساب في ... خاطر الليل بخوف وارتياب . . .

* * *

أيها النجم ألم يحزنك ما ... فعل الديجور في هذي الرحاب؟

هذه الغابه كانت عالماً ... عبقرياً من سناءٍ وملاب

يخلق البلبلُ فيها جنةً ... من أغانيه الرخيماتِ العذابِ

ويثير الجدولُ اللاهي بها ... متعة الحب والحان التصابي

والضحى يوقظ في اعماقها ... صوراً خلابة اللب سوابي :

من ظلالٍ هائماتٍ كالمنى ... مائجاتٍ خافقاتٍ كالسراب

وزهورٍ يتمايان هوى ... فوق سهلٍ كالصبا غضٍّ الاهاب

وضياءٍ دافقٍ مؤتلق ... في حنوٍّ وحماس والتهاب

عطّلَ الملهمَ من اوتارها ... ومحاها مثل سطرٍ في كتاب

وجلا الاطيارَ عن آفاقها ... ورماها لسباع وذئاب

أكذا ينهارُ رفراف الصبا ... فوق اطلال الاماني والرغاب ؟

أكذا ينصدع القلبُ ولا ... من يواسي القلب في ليل المصاب ؟

أيغيب الامل الهادي وما ... من معزٍ او مسلٍ في الصحاب؟

* * *

غابة الريحان هذي مهجتي ... وفؤادي وحياتي وشبابي

أنتِ روحي مثلت عريانةً ... في ظلام وانفراد واغتراب

عتّكِ الليلُ فلا تبتئسي ... سيطلُّ الفجرُ من أفق العذاب . . .

من باريس ... الى سلوى

بقلم الدكتور عبد الرحمن بدوي

مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الاول

☆

ليت شعري أيتسع لديك وجه العذر عن سفرتي المفاجئة الى باريس بعدان كنا قد اتّعدنا لبنان، بلدك الحبيب، مكان لقيانا في هذا الصيف كيما ننمّي نبتة الحب التي غرسناها سوياً تحت ظلال الارز الخالد بعد ان تلاقينا لاول مرة ابان زيارتي القصيرة الخصبة معاً في شتاء هذا العام ؟ في سورة غرامك والتهاب احساسك ما يزيد مخاوفي من هذا الجانب ، بيد ان لى في صفاء عينيك الزرقاوين ما يخفف من اضطراب فؤادك، وفي رقة عواطفك الساجية ملجأ لغفرانك . وما بدهتك بهذا النبأ — وقد كنت احرى الناس بعرفانه من قبل — الا لخوفي من العجز عن مقاومة ارادتك وانت التي اسلمت لها قياد نفسي المتمردة للمرة الثانية في حياتي العاطفية . ولست أكتمك ان عزمي هذا قد انسقت اليه انسياقاً لا اكاد اتبين العلة فيه ، وكأن هاتفاً او طائفاً لاشعورياً هو الذي دفعني اليه رغماً عن كل ارادتي . فلعل القدر ان يكون قد شاء تدبير امر بليل ، امر ارجو ان نستنض منه وجه الخير معاً .

وانك لتعلمين ان هذه اول سفرة لي الى فرنسا وباريس ، بعد ان كانت لي من قبل في اوربا جولات ما كان اطيبها من جولات ! بيد اني وان لم ازرها بالبدن من قبل ، فكأين من مرة طفت بارجائها وتمتعت بجمالها عن طريق الروح ! اجل ، ان للثقافة الالمانية اخطر الاثر في تكويني الروحي ، غير ان اثر الثقافة الفرنسية قد لايقل عنه كثيراً . كيف لا ، وما ايقظني من غفوتي التوكيدية الروحية غير رينان ، هذا الموقظ الاكبر للنفس الوسنى ! لقد كنت اخطر في الاسمال البالية التي دثرتني بها التقاليد وما علمنا اياه الاقربون من دون حجى كما يقول ابو العلاء ، وكانت العقائد الشاحبة التي لقنتها هي التي تستأثر بكل نفسي في غضارة الشباب الاول — وأنا على ما تعلمين من حماسة متدفقة حارة لكل ما اؤمن به — حتى تجلى لي هذا الساحر الاكبر — رينان — فاطرحت كل شيء ظهرياً والتفت عن خلف فاذا به يهتف بي : من هنا الطريق ! آه ! كم كان لصيحته الهائلة هذه من اثر حاسم في توجيه كل كياني لروحي لقد ابدلني مخلوقاً آخر لايهتدي بغير نور العقل ، واذا به ينهال على الاصنام العتيقة فيحطمها تحطيماً ويطهر كعبة روحه من كل اثر عتيق . لهذا فان الدين الفادح الذي ادين به لهذا الرجل العظيم هو من بين الدوافع التي حملتني بهذه القوة على زيارة فرنسا ، كيما احج الى قبره وآثاره ومواطىء اقدامه . وآية ذلك انني لم اكد ارحض النوم عن جفوني مع اول صباح في باريس حتى هرعت لزيارة مقاماته الروحية وآثاره .

وها أنذا اسالك سبيلي ضحى يوم الاحد الثالث والعشرين من حزيران الى كنيسة سان سلبيس ومعهده الذي استيقظت فيه روحه المتوثبة المتمردة . الشمس تبسم من خلال السحائب الداكنة ، ثم تسطع حيناً فتشيع الحرارة الجذلى في باريس بعد ان قضت شهرين لاتزورها الا غراراً وغب امطار عنيفة ، مع ان الوقت وقت الربيع . والطرقات تكاد تكون خاوية الا من النسوه المسنات اوالغواني اللائي أمسكن بأكف بناتهن المتدثرات بالاثواب الطويلة الناصعة البياض كانها ازياء الزفاف ، مقتادات اياهن الى الكنائس لممارسة موسم « التناول » وما كان اجمل منظر هذه الزنابق المتفتحة على ضوء الشمس ذات الجبين الوضاح ! لقد اثار منظرهن في نفسي نشاطاً طروباً بعد ان كان الفتور قد استولى عليَّ في اليوم السالف وقد قضيته مقتعداً كرسيَّ الوثير في هذه الطائرة الضخمة التي تنتسب الى الشركة الفرنسية الجديدة ، وقد غادرنا مطار الماظة في السادسة والنصف صباحاً وبلغنا باريس في الساعة الثامنة مساء دون ان نتوقف في الطريق اللهم الا في تونس التي بلغناها في الساعة الثانية عشرة والنصف وغادرناها في الساعة الثانية بعد ان اخذنا قسطنا من الراحة والغذاء في هذا البلد المسكين الذي وجدت اهله في المطار لايرطنون الا بالفرنسية ويأبون ان يجيبوا عن اسئلتي اياهم باللغة العربية ، مع انهم من غمار الشعب ! فيالله ! ما احق

هؤلاء بالرثاء !

وميدان ســان سلبيس ميدان مستطيل فسيح تستوي على وسطه نافورة ضخمة اقامها ڤسكونتي سنة ١٨٤٤ ، على هيئة بناء دائري ذي اربعة محاريب في كل منها تمثال لكبار الاساقفة الفرنسيين في العصر الذهبي : بوسويه ، هذا الخطيب المقوال ذي الصوت الرهيب الرنان ، وفيناون ، المتأله الرقيق ذي النزعة الصوفية الحادة ، ثم ماسيون وفليشيه وقد جللتهما رهبة الكهنوت . وها هي ذي الكنيسة الرائعة تتبدى بكل جلالها وتكتل معمارها ، وقد تعاورها منذ انشائها طرازان : يسوعي ساهم في انشائها ، ثم قديم يوناني وضع وفقاً لتصميم سرڤندوني سنة ١٧٣٢ . واول ما يسترعي الناظر وهو في مواجهتها هو هذان الطابقان اللذان يكونان الواجهة وقد تألف السفلي منهما من رباعات من الاعمدة الدوريــة الضخمة ، بينما تألف العلوي من رباعات من الاعمدة الكورنشية الصغيرة وقد احاط بها من الجانبين الغربي والشرقي برجان شاهقان بنيا على الطراز التقليدي . حتى اذا ما استدار الناظر حول الكنيسة من شارع بلاتيه تبدت له واجهة الجذع متكتلة لا تخلو من الثقل بما لها من طراز يسوعي قليل النظير في غير باريس . ومن الجهة الاخرى المقابلة للواجهة ، اعني عند القبة والمحراب تتجلى مليئة تحبلى بالفــراغ الفسيــح

وكان اليوم يوم احتفال بعيد ، فكانت الكنيسة تموج بالافواج الزاخرة وبخاصة من النساء والفتيات . ولما ان دخلت كانوا بسبيل اقامة قداس ، فكانت الاصوات الناعمة الباغمة تنطلق من الكورس فتدوي بها ارجاء الكنيسة ، ثم تنقطع حيناً لتخلي السبيل امام الكاهن وهو يقوم بمراسمه ويهدر بصوته الرهيب في هذا الصمت المفاجيء ، الى ان انتهت مراسم القداس ، فتألف موكب جميل من الفتيات الصغيرات ، يتلوهن الصبية في ملابس تشبه ملابس الكشافة ، ثم جاء على اثرهم كواعب اتراب ينضح الجمال من وجوههن الناصعة البياض او المضرجة بالحمرة الفاتنة وقد تدثرن باثواب من التيل الرقيق الصافي ، ومن ورائهن كتائب الشباب وهم في مقتبل العمر ولا يخلون من العبث والمشاكسة فيما بين بعضهم وبعض واخيراً جاءت كوكبة من طلاب الكهنوت بقمصانهم البيض الطويلة ذات الاكمام المجللة اطرافها بالسواد .

وانت يا سلوى ! اتذكرين كيف كنا نقرأ سوياً « ذكريات الطفولة والشباب » لرينان فنمتلىء حماسة وحرارة واعجاباً بما فيها من روح متوثبة توقن بان المستقبل سائر قدماً الى الابد في طريق التنوير ، وكنت انا بين الحين والحين في الليالي القمرية الفاتنة على الشاطىء المهجور ذي الخمائل الكثة اعيد عليك عن ظهر قلب بعضاً من صفحاته ، وبخاصة تلك المقدمة الرائعة التي لا اكاد اجد مقدمة تعدلها ؟ ثم « الصلاة على الاكروبول » هذه الصفحات الخالدة في هذا الكتاب الفريد ، اتذكرين كيف كنت اتمثلك انت بعينيك الزرقاوين هذه الالهة — اتنيه — التي ناجاها رينان في تلك « الصلاة »

لكن ، اليكِ عني أيتها الذكريات العذبة وانت ايتها الاسئلة المكلومة ، فما أتيت باريس الا لاخلو الى نفسي طليقةً من كل طائف اليم وذكرى اسيفة . وما اريد الا ان اشاهد بعيوني وامتع البصر كثيراً والفكر قليلا . اريد الاحساس الحاد الخالص من كل تأويل فكري ، الاحساس المجرد الخالي من كل ادراك او تعقل ، فقد سئمت التعقل والتجريد ، فلأدعهما الى حين . وعندي ان هذه هي الميزة الكبرى للرحلات والاسفار النائية ، ، بل والدانية .

ولاعد اذن الى الموكب وقد تقدمه كاهن شيخ يحمل عصا معدنية ذات سن مدببة ، فيها زخارف والوان متعددة ، وهو يحدو الموكب على ترنيمة ذات ايقاع خاص يحدده بضرب الارض بتلك العصا ضربات موزونة لا تخلو من الترويع ، وبخاصة اذا انضم الى سماعها رؤية وجهه المتجعد المتخدد ومنظر ملابسه المزركشة ، وفي مؤخر الموكب كله حامل ضخم مكون من مربع ذي اربع قوائم يجره او يدفعه كبار الحاضرين ، ولا يمر امام الواقفين حتى يهرع هؤلاء الى الانحناء اجلالاً له . فكان الموكب كله لا يخلو من الرهبة ، بل قد كان رهيباً حقاً الى درجة مرهقة ، لولا فراهات الاطفــال وبسمات الغادات الحسان .

ولقد طاف الموكب بالكنيسة مرتين ، وتابعته في كلا الطوافين كيما اتجلى واتملى بهذه الصور الجدارية (الفرسك) التي طليت بها الجدران الداخلية للكنيسة ، وهي من عمل طائفة من الفنانين في القرن الماضي اشرف عليها في هذا العمل دلاكروا ، الرسام الرومنتيكي المشهور : وفيها رسوم للقديس ميخائيل وهو يجندل التنين (في قاع القبة) ، وعلى الجدار الايمن رسم هليودورس مطروداً من المعبد ، وقد كان وزيراً لملك سوريا واراد ان يستولي عــلى كنوز معبد اورشليم ، فاتاه ثلاثة ملائكة وكل اليهم القصاص فجندلوه ، وعلى الجدار الايسر يعقوب يناضل الملاك . وكلها ذات طابــع رومنتيكي عنيف ، تمتاز بالانفعال وحدّة التعبير وزهوّ الالوان . ثم توقفت قليلًا عند محراب العذراء ، وقد تبدى ذا تأثير غير قليل .

ولندع الكنيسة بمن فيها من افواج ولنتابع الحج الى مقامات

اية مجاعة ادبية هناك ؟ !

بقلم سهيل ادريس

☆

كتب الاستاذ عبدالله المشنوق في الجزء الماضي من «الاديب» كلمة بعنوان «مجاعة ادبية» كاد ينعي فيها ادبنا العربي الحديث ، ويعبر عن يأسه من جراء «قحط ادبي نعيش فيه ، لم يسبق لنا ان شاهدنا له مثيلاً في ماضيات ايامنا.»

وقد رأينا في هذه الكلمة اخطاء فكرية وآراء مخالفة للواقع وللحقيقة الادبية ، تدعونا الى ان نقف لحظات عندها نناقشها محاولين ان نرد مواضع الخطأ فيها الى مقرها الاصيل من منطق الحقيقة والواقع ، لاننا لا نسمح لانفسنا ان نسكت عن امور تشوه هذه الصفحة المشرقة التي يسجلها ادبنا الحديث.

١ — الذي يؤسف حقاً ان يعمد كاتب كالاستاذ المشنوق ، عرف بقوة الحجة وسداد الرأي ، الى تهديم صرح منيف من الادب ، وهيكل جبار من الادباء ، بصفحة واحدة يكتبها بلهجة جازمة لا تحتمل الرد او النقاش ! ومما يجسم هذه الزلة ان ليس ثمة آراء تصلح لان تكون موضع جدال ومناقشة كالآراء التي اوردها في كلمته . ولا شك في ان الكاتب يتبدى هنا كمؤرخ للادب ، والمؤرخ عالم ينبغي ان تتوفر لديه الرصانة العلمية ، والدقة في البحث ، واستيفاء الموضوع من كافة نواحيه ، والنزاهة والبعد عن التعرض والتحيز . ونعتقد ان البحث العلمي الرزين ، حين يتناول جيلاً من الادباء ، وتياراً من الادب ، يجب ان يستغرق اكثر من صفحة واحدة ، مهما كان غنياً بالآراء الصحيحة والنظرات الصائبة ، الامر الذي لم يتوفر في مقال الاستاذ الكاتب كما سنبين بعد بالتفصيل . واذن ، فان مأخذنا الاول ، هذه السرعة ، او التسرع في تناول بحث يستلزم جهداً عظيماً ، وهذه «اللامبالاة» البعيدة عن الروح العلمية في طرق موضوع خطير يرمي الى تأريخ فترة من فترات الادب العربي.

٢ — يقول الاستاذ المشنوق : «وكادت كلمتنا (والضمير راجع اليه والى الزيات والحكيم وكيلاني) تجمع على ان الادب العربي الحديث لا يمت الى الحياة العربية بصلة وثيقة ، وان ادبنا

رينان ، فهنا في الميدان يوجد المعهد العتيق ، معهد سان سلبيس الذي تلقى فيه رينان دراسته اللاهوتية ، لكن اين هو الان ؟ عبثاً افتش عنه تحت الرقم الذي دلوني عليه مكاناً له ، وهو رقم ٩ ، فليس ههنا غير مصلحة التسجيل ! وبعد لأي عرفت ان المعهد العتيق قد اوصدت ابوابه للاهوت ، واخلي في سنة ١٩٠٦ بعد صدور قانون الفصل ، اعني فصل الدين عن الدولة في فرنسا ، فصار يؤوي موظفي التسجيل ، بدلاً من الطلاب السلبسيّين ولكم اثر هذا في نفسي بيد ان هذا ليس حظ ذلك المعهد وحده ، فاكثر ما في باريس قد تعاورته ايد مختلفة وتناولته ايدي التبديل المزري المدنس ، حتى المقدس منه ، فلم ترع فيه الاً ولا ذمة . آه آه ! انها بلد لا يقيم للزمان وزنا ، ولا يبقي على حرمة العتيق . وهذا هو السر في فقرها في الآثار الفنية والذكريات الخالدة ، لو قورنت بمدنية من مدن ايطاليا مثلاً . والناس يقولون عن باريس انها بلد خليع متهتك ، ولقد وجدت مصداق هذا القول في تهتكها في الآثار الفنية والذكريات الخالدة ، فقد اطاحت بقداسة الزمان ، وجرت بالجديد البراق على العتيق العميق ذيول النسيان .

وما اطيل عليك ، فالرسائل اليك ستنهال عليك تترى ، وفي انتظار انبائك انت وبلدك العزيز ارسل اليك تحية تعبق بأريج الورد الزاهي في غابة بولونيا

باريس — عبد الرحمن بدوي

لا يستمد عناصره من صميم الواقع ، وانه ادب غير مقيد بزمان او مكان . وضربت لهم مثلاً لعله لا يخلو من الغلو : فقلت لهم ان العدد من الرسالة او الثقافة الصادر في تموز ١٩٣٧ تموز يمكن اصداره نفسه عام ١٩٤٠ دون ان تتأثر موضوعاته ودون ان يشعر القاري.. ذلك ان ادباءنا لا يستمدون مادتهم من هذه الحياة المتجددة كل يوم ، بل كل ساعة ، وانما يكتبون في العام الاول من القنبلة الذرية ما لا يختلف كثيراً عما كتبه ادباؤنا في نهاية القرن التاسع عشر ... »

ثم يقول الكاتب توضيحاً لما سبق : « نحن نعيش في قحط ادبي لم يسبق لنا ان شاهدنا له مثيلاً في ماضيات ايامنا . فالشعر في تدهور ، وشعراؤنا اصبحوا « كصخرة المتنبي » لا تحركهم هذه الاحاسيس الوطنية وهذه الاحداث الجسام تجري في العالم العربي ! اين ملحمة جامعة الدول العربية ؟ اين شعراؤنا يخلدون مهرجان الجلاء عن سوريا ؟ اين مأساة فلسطين ؟ اين خيبة النصر ؟ اين ؟ »

ينفي الكاتب هنا ان تكون لادبنا الحديث شخصية متميزة الخصائص ، ولماذا ؟ لانه لا يمت الى الحياة العربية بصلة وثيقة ... الى اية حياة يمت هذا الادب اذن ؟ اينكر الاستاذ المشنوق ان يكون لدى ادبائنا شعور متيقظ واع بالقومية العربية ؟ السنا نقرأ في كل يوم مقالات ومقالات في الدفاع عن العروبة وفي تفصيل مزاياها ، سواء في ميدان الصحافة او ميدان الادب ، في المجلات والمؤلفات ؟ وكيف ينكر ان عدداً كبيراً من الشعراء العرب انشدوا القصائد في تمجيد الجامعة العربية من مثل علي محمود طه ، ومحمود حسن اسماعيل ، ومحمد الاسمر وغيرهم ؟ او لم يسمع القصائد العديدة التي اذيعت من الراديو في مهرجان الجلاء بسوريا لعدد من شعراء الشام ؟ اينسى انه ليس ثمة صحيفة يومية او اسبوعية ، سياسية او ادبية ، الا وتخصص في كل عدد من اعدادها دفاعاً عن عروبة فلسطين ؟ ايدّعي الاستاذ المشنوق ان جميع هذه القصائد والمقالات من سقط المتاع ، حتى يبرر اهمالها ؟ ان كان يدّعي ذلك ، فهذا موضوع آخر ، ليس في وسعنا ان نناقشه به ، قبل ان يعالجه هو نفسه ...

فكيف اذن لا يستمدّ ادبنا عناصره من صميم الواقع ؟ وكيف لا يكون مقيداً بزمان او مكان ؟ ومما يدعو الى الدهشة حقاً قول الاستاذ المشنوق : « يكتبون في العام الاول من القنبلة الذرية ما لا يختلف كثيراً عما كتبه ادباؤنا في نهاية القرن التاسع عشر ! » ومعنى ذلك ان الادب العربي في خلال نصف قرن ظل حيث هو ، لم تدخل فيه عناصر جديدة من الحيوية والتوسع ! الا يرى معي القاري. ان هذا الكلام لا يرتكز على اساس من الواقع ؟ اليست خصائص جيل طه حسين والعقاد وهيكل والحكيم والمازني ونعيمة والفاخوري ومطران وبشارة الخوري وجبري ومردم وغيرهم ، هي غير خصائص جيل الرافعي والمنفلوطي والبارودي ويكن وجبران واليازجي وغيرهم من ادباء اواخر القرن التاسع عشر واوائل العشرين ؟ أظل النقد والترجمة والنقل والشعر والقصة والدراسة كما كانت منذ ربع قرن ؟ الم يتسع افق ادبنا الحديث ، حتى اصبح يتصل بآفاق الآداب العالمية الاخرى ، وباتت بعض روائعنا تنقل الى الاداب الاوروبية ؟

ان القاري. يلمس ولا شك بان الكاتب يثير في عدة اسطر قضايا ادبية تستلزم معالجتها جهداً رصيناً ودراسة دقيقة ووقتاً طويلاً .. وهو بعد يحلها في كلمتين جازمتين !!

على اننا نتبين من كلامه ان الادب الصحيح الذي يستمد عناصره من الحياة ، انما هو ادب الوطنية والقومية فقط .. اي ان كل ما انتجه ادباؤنا في غير هذا الميدان ، ليس ادباً .. وهذا واضح تماماً من مجمل الاسطر التي سجلناها .. ولست في حاجة الى ان اذكر ان هذا هو الخطأ بعينه ، فلن يكون ادب الوطنية الا مظهراً واحداً من مظاهر لا تحصى في الادب : فهل كان النتاج الذي استوحاه ادباؤنا من الحب والجمال وسائر العواطف الانسانية ، ومن التفكر والنقد وغيرهما .. أفكان هذا النتاج من سقط المتاع ؟ ان الكاتب يهدم بنظريته هذه جوانب عظيمة من هيكل الادب الصحيح ، لانه يحصر الادب في نطاق ضيق أبعد حدود الضيق .

٣ — يقول الاستاذ المشنوق : « ولعل خير مقياس تستطيع ان تقيس به قيمة اثر أدبي في اية لغة من اللغات ، هو ان تحاول ترجمته بصدق وبلاغة الى لغة ثانية ، فاذا احتفظ بقوته الادبية ، كان ادباً عالمياً يستحق الحياة . ولو رحنا على هذا الاساس ننقل الى اللغات الاجنبية ما جادت به اقلام ادبائنا وكتابنا شعراً او نثراً ، خلال النصف الاول من هذا القرن ، لما وجدنا مادة خصيبة لهذه المحاولة ، ولرددنا الشيء الصالح الذي قد نعثر عليه الى الاصل الاجنبي الذي اقتبس عنه .. »

في هـذه الجملة فكرتان من الميسور نقضهما : اولاهما ان هذا المقياس الذي يعتمده الكاتب لتقويم الاثر الادبي ، مقياس لا ينطبق على جميع الآثار الادبية ، اي انـه — بعبارة اخرى — مقياس مخطىء احياناً . ذلك ان خصـائص التفكير ، ليست واحدة عند جميع الشعوب ، فالفكرة التي يستسيغها البريطاني ويعتبرها صحيحة ، قد لا يستسيغها الفرنسي ويعتبرها خاطئة . ووفقاً لهذا التباين في خصائص التفكير ، يختلف تقويم الاثر الادبي بين بـلد وآخر : فقد ينجح في بريطانيا كتاب اذا نقل الى الفرنسية يؤول الى الاخفاق . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، يظهر تقصير هذا المقياس وخطأه ، اذا طبق على مـا يدعى بـ « اللون المحلي » . فان الاثر الادبي الذي يحمل لونـاً محلياً خاصاً ، يعتبر ذا قيمة ادبية قد تعظم او تضؤل ، ولـكنها قيمة لا شك فيها بالنسبة الى النتاج الذي يصدر في البـلد الذي يتميز بهذا اللون المحلي ، في حين ان هذا الاثر قد يفقد كل قيمته اذا نقل او ترجم الى لغة اجنبية ، لانه يـكاد يستحيل المحافظة على اللون المحلي اذا نقل الى لغة غير اللغة التي عُبر بها عنه .

واما الفكرة الثانية فهي زعمه ان ليس من سبيل الى ترجمة ادبنا او بعض آثاره الى اللغات الاجنبية لانـه غير صالح ، واذا اتفق ان وجدنا شيئاً صالحاً ، فهو من قبيل « بضاعتنا ردت الينا » وهذا يعني ان ليس في الاقطار العربية ادب يستحق ان يخـلد ، وان الجيد الذي نجده ، مقتبس كله عن الآداب الاجنبية .. وهذا رأي لا يقره احد ، لان « الابداع » قد تجلى — ولايزال يتجلى — في كثير مما انتجه الادباء المصريون واللبنانيون والسوريون كتوفيق الحكيم وطه حسين والمازني وهيـكل وتيمور ونعيمه والخوري والفاخوري والعلايلي والشائب والجـابري وغيرهم ولا يتسع المقام الان لبحث هذا الامر

٤ — ويتابع الاستاذ المشنوق فكرته بقوله : « يؤيد هذا الرأي حديث جرى منذ ايام بيني وبين الاستاذ فؤاد صروف رئيس تحرير مجلة المختار ، فقد اعرب لي بمرارة عن أسفه لانـه لم يجد في ما تنتجه اقلام كتابنا ما يصح ان يترجم لينقل بنجاح في الطبعة الاميركية من مجلة المختار ، وقد عهد الى بعض كتابنـا البارزين بكتابة فصول خاصة تليق بالنشر في الطبعات الاجنبية من المختار ، فلم يـكن موفقاً في محاولته ، لان كاتبنا كسول لا يرى اجهـاد نفسه بكتابة بحث عميق ، وانما يـكتفي بهذه النظرات السطحية ينشرهـا في المجلات والكتب التجـارية الرخيصة » .

يا للعجب ! لقد اصبح مقياس الادب الصحيح هو صلاحيـة نشره في مجلة « المختار » ! فاذا استحق ان ينشر فيها فهو ادب رائع يستأهل الخلود ، والا فليلق في سلة المهملات ... ومع الاسف الشديد ، ليس في ادبنا ما هو جدير بالنشر في هذه المجلة الراقية ، لان هذه المجلة ، لا تنشر الا الابحاث العميقة ، ولان كتابنا سطحيون ! . . قد يـكون للاستاذ صروف العذر في هذا النحو من التفكير ، لانه رئيس تحرير هذه المجلة ، ويهمه ان يعظم بشأنها .. فما هو عذر الاستاذ المشنوق الذي يبدو انه يقر آراء الاستاذ صروف ؟ هل اصبحت قراءة المختار تغنيه عن قراءة نتاج ادبائنا الحديث ؟!

اما نحن فنعتقد — خلافاً لذلك — ان الاستاذ المشنوق لا يقرأ مجلة « المختار » ، لانها تخرج لعامة الشعب ، ولانـه هو مثقف يلتمس غذاءه الروحي في غير هذه المجلة ، ونحن نأسف ان يـكون ادبنا — في نظره — اضعف وأحط مما تنشره مجلة « المختار » الرفيعة الراقية ..

٥— « واما النثر فليس احسن حالا من الشعر ، فالادب العربي لا يزال محروماً من القصة ، وليس ثمت اية بادرة تدعو الى التفاؤل ! اتيح لادبائنا ان يرافقوا اعظم حرب في التاريخ ، فلم توح الى احد منهم اثراً ادبياً واحداً يصور فيه خاطرات نفسه او مشـاهد صراع القوات الجهنمية . ما له ولهذا كله ! فليـكتب لنا فصلاً في المقارنة بين ابي تمام والمتنبي ، او فليبحث لنـا عن شخصية تاريخية يبعثها من رقادها على ورق مصقول ومجلة انيقة !.. »

اما ان يـكون الادب العربي محروماً من القصة ، فهذا كلام بعيد عن الواقع ... فعلى الرغم من ان القصة لا تزال لدينا في مرحلتها الاولى ، نجد عدداً من القصص والروايات التي لا تقل روعة عن الروايات العالمية ، على ضآلتها . ويقيننا ان تشاؤم الكاتب في هذا الصدد ناتج عن تقصيره في قراءة القصص العربية ، اكثر ممـا هو ناتج عن عدم تقديره لها بعد تلاوتها ، ذلك لان الذي يقرأ « عودة الروح » و « الرباط المقدس » وغيرهمـا من قصص الحـكيم ، و « زينب » لهيـكل ، و « دعاء الـكروان » لطه حسين واقاصيص تيمور في « فرعون الصغير » و « مكتوب على الجبين » و « شفـاه غليظة » ، وروايات الجـابري الثلاث « نهم » و « قدر يلهو » و « قوس قزح » واقاصيص الشائب في « تاريخ جرح » واقاصيص خليل تقي الدين ، اقول ان الذي يقرأ هذه الآثـار القصصية

وغيرها ، لا يمكن ان ينظر الى قصتنا نظرة تشاؤم ، ويقطع الأمل من مستقبلها .

ويعلق الكاتب اهمية كبيرة على ما يجب ان توحيه « الحرب » الى كتابنا . ونحن نرى ان اثر الحرب — كأثر اية ازمة — لا يمكن ان يظهر في نتاج الاديب الا بصورة غير مباشرة ، لان الاديب ليس مؤرخاً ، وقصاراه ان يعبر باحساسه وشعوره عن اثر الحرب في نفسه وفكره . ثم ان الكاتب العربي لم يتح له ان يرافق هذه الحرب عن كثب كما رافقها الكاتب الاجنبي ، لان ويلاتها ومصائبها لم تصبه كما اصابت هذا . وليس ثمة اي ضير او نقيصة ، في ان يكتب الكاتب مقارنة بين ابي تمام والمتنبي ، او يبحث عن شخصية تاريخية يبعثها من رقادها ، بل ان ذلك في نظرنا اوفر فائدة وارفع قيمة من تأليف كتاب عن « الحرب » !

٦ — وينهي الاستاذ المشنوق مقاله : « وقد غلبت على ادبائنا النزعة الصحفية التجارية المادية ، فاذا بادبهم يتسع سطحاً ولا ينفذ عمقاً ويتلاشى موضوعاً ومادة الى مستوى رجل الشارع .. فاذا باحمد امين يهجر « فجر الاسلام وضحاه وظهره وعصره » ليكتب عن الموضة في مجلة « الاثنين » مقالا مزيناً بالصور والرسوم ، واذا بتوفيق الحكيم يهبط من برجه العاجي ويترك فيه شهرزاد واهل الكهف ويوميات نائب في الارياف لينقد شريط لص بغداد في مجلة آخر ساعة ، واذا بالعقاد يترك ابن الرومي ونتشه والعبقريات ليكتب في كل موضوع — كخادمة المنزل التي تصلح لكل الغرف — وفي كل صحيفة يومية واسبوعية ، واذا بطه حسين يترك الايام — اروع « قصة حياة » كتبها اديب عربي — و « على هامش السيرة » لينصرف الى السياسة الحزبية الخ ..

ليس صحيحاً — قبل كل شيء — ان الكتاب المذكورين انصرفوا الى الصحافة وحدها ، فان الاستاذ المشنوق لو اطلع على المجلات والصحف الادبية ، ولو كان يتتبع التآليف التي تصدر كل يوم في مصر ، لادرك ان الكتابة الصحفية لا تشغل من وقت الادباء المذكورين الا جزءاً يسيراً ، وعلى كل عشرة مقالات ادبية يكتبونها تجد مقالا صحفياً واحداً . وما زال توفيق الحكيم والعقاد وغيرهما من الادباء اللامعين يصدرون في كل سنة كتاباً او اكثر . هذا من جهة ، وليس يضير الكاتب ان يكتب المقالات الصحفية وان يتناول الامور والاحداث الجارية بالنقد او التحليل بل ان ذلك يقوي لديه حس الواقع ، ويجعل نظراته في الحياة اقرب الى الصواب ، كما انه يرفع الاديب ان يكتب لرجل الشارع فيحاول ان ينشله من وهدة الجهل ويثقفه ، وليست القضية قضية القارىء الذي يكتب له او الموضوع الذي يتناوله الكاتب ، وانما هي قضية التجويد في الموضوع المطروق ، او عدم التجويد . فقد يظهر موضوع ما تافهاً بحد ذاته ، ولكن الكاتب المجيد قد يجعل منه موضوعاً قيما يستحق القراءة . ومعنى ذلك انه ليس يشين احمد امين ان يكتب في « الموضة » اذا كان ما كتبه جيداً ، كما لا يضير الحكيم ان ينقد فلم « لص بغداد » اذا كان هذا النقد صائباً ومفيداً ..

وهل يحط من شأن العقاد ان يكتب في كل موضوع ، وهو ذلك الفكر الجبار الذي يهضم كل شيء ، ويسعه ان يميز الخبيث من الطيب ؟ اني لاعجب من هؤلاء القوم الذين يطلبون من الكاتب ان يطلع على كل شيء ، ليكون مثقفاً الثقافة الكاملة ، ثم هم ينكرون عليه ان يتكلم الا في نوع واحد من الادب ، وان يكتب الا في لون معين من الثقافة ؛ ومهما يكن من امر فقد كان على الاستاذ المشنوق ان يثبت ان هؤلاء الكتاب كانوا مخفقين في هذه المواضيع التي طرقوها ، ولو فعل ذلك ، لكان كلامه خليقاً بالنقاش . وقد كنت احب ان يترفع عن وصف العقاد بهذا الوصف الخفيف

وان اعجب لشيء ، فلكون الكاتب يسخر من الاديب الذي يكتب مقالا صحفياً بين عشرة مقالات ادبية ، وينسى انه هو نفسه قد انصرف كل الانصراف عن الادب ، فاصبحت كتابته مقصورة على المواضيع الصحفية ، يعالجها في « النقاط على الحروف » فيتناول بالبحث البوليس والدرك والجمرك والبضائع و ... الا يرى ان الكاتب الذي كان اديباً مرموقاً يقرأه القراء باعجاب ثم اصبح صحفياً احق بالنقد واللوم ؟

واسأل الكاتب : لماذا استشهد بادباء مصريين فقط ، وهل نشأت هذه المجاعة عن قحط ادبي بمصر وحدها (اذا فرضنا جدلا ان هناك قحطاً ادبياً ؟) .. فنحن نعرف انه معجب بالادب اللبناني ... فهل نشأت تخمة ادبية من النتاج اللبناني الغزير القيم ؟ اما ان يكون الكاتب قد اهمل هذا الجانب من بحثه قصداً ، فهو متغرض متحيز ، واما انه اهمله عفواً ، فهو مقصر في بحثه .. على ان الذي لا شك فيه ، هو ان هذه اللهجة الساخرة التي تناول بها الكاتب موضوعه ، يجب ان يخلو منها البحث العلمي

٧ — يقول الكاتب في موضع من مقاله : « هذه حقيقة مؤلمة (يقصد القحط الادبي) يجب ان نسلم بها ، لا لنقف عندها ونندب

البقية على صفحة ٦٥

الى بلقيس

◆

لمحمد حسن علاء الدين

القدس

الفن ، يا بلقيس ! ، عطر تنهـد   في القلب يعقبه الخيـال السامي
او عطر اشعاع اللقاء وضحكة   من عطفه بالخـافق المترامي
ابداً محبته تتوق ، وان شجـا   أنحـاءه وتر من الالهـام
صاحت به زمر الفراش وضوّعت   نجوى الهيـام غريقة الانغام

* * *

أحديقـة الفن التي بدلالهـا   تزهى ، وبالصوت المليء الطامي
رفقـاً بجنب صدّعت أجـواءه   رنات صوتك مثل ذوب مـدام
رفقـاً ، وهاتي قبلة أشفي بهـا   ناراً تجسم ملهبـات أوامي



☆

انقاض املي

◆

ليونس يوسف يونس

☆

لاغوس ــ نيجريا

دعيني اعـانق حلمي الجميـل   فان عنـاق الرؤى لي عزاء
لقد سـاد قلبي مسـاء طويـل   وخيم فوقي ظـلام المسـاء
وشمس الامـاني قبيـل الاصيل   توارت وعني ، تواري الضياء

* * *

وهمت وحيـداً ومـا من دليل   كمن ضل بين سماء ومـاء
ربيـع حيـاتي خريف ثقيـل   تكـاثف فيه ضبـاب الشتاء
اذا مـا استغثت ، صدى المستحيل   بوادي التلاشي يعيد النداء
هـدمت ولم يبق غير القليـل   من العمر يمضي اسى في شقاء

* * *

دعيني اعـانق حلمي السعيـد   فان عناقُ الرؤى لي حيـاة
لقـد خف طي الضلوع الوقيد   واضحى رماداً .. وما فات فات
وحـل مكان اللهيب الجليد   واصبحت ارقب طيف الممات
امـاني صباي منـام بعيد ..   ولم يبق منه سوى الذكريات

التعريف بالعلوم العربية والاسلامية

بقلم يوسف اسعد داغر

امين دار الكتب اللبنانية

☆

اللغة

عني العلماء باصول اللغات وفروعها فنظروا في كيفية تشعبها وترقيها وتوقفها واضمحلالها . وقد حللوا كلاً منها فنظروا في مقوماتها ومميزاتها ومشابهاتها وفروقها ، فتوصلوا الى تبويبها وترتيبها فرقاً وطوائف باعتبار ما بينها من الجوامع والفوارق .

وقد قسم رجال البحث اللغات باعتبار المتكلمين بها الى طائفتين اوليين : اللغات السامية واللغات الآرية . فاللغات السامية هي اللغات الجارية على السنة الامم التي يرقى القدماء بنسبها الى سام بن نوح : كالعرب والعبرانيين والسريان والاشوريين وغيرهم .

واللغات الآرية وتدعى ايضاً الهندية الاوروبية هي لغات الامم الممتدة من الهند الى اوروبا وهي من اصل واحد : اللغة السنسكريتية وهي لغة الهند القديمة ومن فروعها : اللغة اليونانية واللاتينية والبهلوية (الفارسية القديمة) ، واللغات الصقلبية والجرمانية واللغـات اللاتينية الحديثة كالفرنسية والايطالية والاسبانية : وزاد قوم طائفة ثالثة تعرف باللغات الطورانية وهي المجرية والتركية والتترية والمغولية .

ويقسمون اللغات من حيث تكوينها وارتقاؤها الى ثلاث طبقات ، كل منها ارقى واكمل من الاخرى . ففي الطبقة الاولى اللغات الاحادية ، وفي الثانية اللغات المزجية ، وفي الثالثة اللغات المتصرفة . فاللغات الاحادية هي : الصينية والسيامية والتبتية واللغات المزجية هي التركية واليابانية والكورية والمكسيكية وغيرها . اما اللغات المتصرفة فهي : العربية والعبرانية والسريانية الخ .

ويقسم علماء الالسن اللغات من حيث التعبير عن المعاني الى اجمالية وتفصيلية . فاللغات القديمة كلها اجمالية كالعربية واليونانية واللاتينية ، واللغات الحديثة كلها تفصيلية كالفرنسية والانكليزية والايطالية ، وتفردت الالمانية بكونها مزيجاً من الفئتين .

ويقسمون اللغات من حيث البقاء والدثور الى حية وميتة .

اما اللغات الحية فهي التي لم يزل شعب من الشعوب يتكلم بها كالعربية والانكليزية . واللغات الميتة هي التي استعملها شعب قديم وانقرضت بانقراضه او حلت لغة محلها كالفينيقية والسريانية واللاتينية ، ولا اثر لهذه اللغات الا في بطون الدفاتر .

العرب

ينقسم الشعب العربي الى قسمين : شعب قحطان وموطنه اليمن ، وشعب عدنان وموطنه الحجاز وما ياسره الى ريف العراق . والمؤرخون يرجعون العرب الى ثلاث طبقات :

العرب البائدة : وهم الذين درست اخبارهم وطمست آثارهم

العرب العاربة : وهم اليمنيون المنتمون الى يعرب بن قحطان

العرب المستعربة : وهم ولد اسماعيل نزل بالحجاز حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد . وقد ضل اعقابه في مجاهل الزمن فلم يعرف التاريخ منهم على التحقيق الا عدنان واليه ينتهي عمود النسب العربي الصحيح .

وللعرب عصران : عصر البداوة وعصر الحضارة

لغات القبائل العربية

كان لقبائل العرب قديماً لغات او لهجات عديدة منها لغات تميم وربيعة ومضر وقيس وهذيل وقضاعة . واللغة العربية كما وصلت الينا هي لغة الحجاز . ولعرب اليمن لغات تختلف عن

لغات عرب الحجاز ونجد ، اي بين جنوب الجزيرة وشمالها ، وهذه لغات اليمن :

المسند : لغة حمير ، في اليمن
الزبور : لغة حضرموت وبعض اليمن
الرشق : لغة عدن والجند
الحويل : لغة مهرة والشحر
الزقزقة : لغة الاشعريين .

المعارف عند العرب

كان العرب في الجاهلية بحسب طبيعة ارضهم جماعات بدوية وقبائل رحالة ليس لها من وسائل العمران واسباب الرخاء ما يحملها على تبحر في علم او تبصر في دين او تفنن في تجارة ، او تأنق في زراعة او تدبر في سياسة . وكانت جماعاتهم من التدابر والتقاطع والتصاول على حال لم تقتصر على سكان القفر والوبر ، بل عمت المدن والمدر . وعلى وفق ذلك كانت اللغة العربية لا تعدو اغراض المعيشة البدوية ووصف مرافقها واثارة المنازعات والمشاحنات الا ان ظهور الاسلام والتفاف العرب حول صاحب هذه الدعوة النبي محمد وانصاره وتفهمهم القرآن الكريم الذي ضمنه الشريعة والحديث الشريف الذي اورد فيه كلامه ، ثم خضوعهم بعده لزعامة قومه وخلفائه وولاتهم واعوانهم وفتوحهم تحت ألويتهم ممالك الاكاسرة والقياصرة وغيرها ومخالطتهم اهلها بالجوار والمصاهرة ، احدث في حياتهم الفكرية واللسانية تغييرات ظهرت بينة في الاسواق التجارية واللغوية والاجتماعية ، وفي اذعانهم لحكومة الاشراف والفصحاء والنبلاء من قريش وتميم وغيرهما ما هيأهم لأن يجتمعوا تحت لواء واحد ويتفاهموا بلسان واحد . وقد انتشرت في صدر الاسلام اللغة العربية القرشية انتشاراً عظيماً في ممالك الفرس والروم وغيرها بالفتوح والمغازي وهجرة القبائل البدوية اليها واستيطانهم لها واختلاطهم باهلها وتقرب هؤلاء الاعاجم اليهم بتعلم لغتهم والدخول في دينهم المستمد من القرآن مما ادى بالعرب الى وضع مبادىء بعض العلوم وترجمة اليسير من العلوم الطبيعية والرياضية والطبية التي كانت شائعة في البلدان التي افتتحوها او جاوروها .

علوم العرب وفنونها

العلوم والصناعات لازمة لحضارة الامم متناسبة معها . ومن العرب اهل حضارة دلت عليها دولتهم العظيمة وقدم تاريخهم وآثارهم الخالدة وهم التبابعة في اليمن والمناذرة والغساسنة في الشمال . وقد كانت هندسة ارواء الارض وعمارة المدن والحساب والطب والبيطرة والزراعة ونحوها معروفة في الجنوب والشمال مدونة في الكتب ، وان لم يحفظ لنا الدهر صوراً منها . اما البدو منهم ، وان كانوا اميين يمقتون الصناعات ويتنقصون اهلها فلا غنى لهم عن تجربة ترشدهم الى ما ينقصهم في بواديهم المقفرة ومجاهلهم الطامسة ، ليعلموا ما به تصلح انفسهم وانعامهم وتستطلع خفايا امورهم وتدون فيه مفاخرهم وليعرفوا متى تجود السماء وبم يتميز الاقرباء من البعداء ، فكسبهم ذلك علم النجوم والطب الضروري والانساب والاخبار ووصف الارض والفراسة والعيافة والقيافة والكهانة والعرافة والزجر وقرض الشعر .

تعريف العلم والمعرفة

العلم او المعرفة هي الادراكات الصادقة الحقيقية الموضحة للاشياء الطبيعية بطريق البرهان . وتقسم هذه المعرفة الى اقسام كثيرة من جهات مختلفة .

فتقسم من جهة نشوئها الى قديم (incrée ou éternel) ومحدث (Créé ou temporel) ومن جهة متعلقها الى تصور وتصديق ، ومن جهة طرقها الى ثلاثة اقسام ، قسم يثبت في النفس وقسم يدرك بالحس وقسم يعلم بالقياس . وتقسم من جهة اختلاف موضوعاتها الى اقسام كثيرة من الاعم الى الاخص ، ولكن الاول اسهل وايسر . ويسمى بعض هذه الموضوعات علوماً وبعضها صنائع وبعضها فنوناً وبعضها آداباً ، الخ .

وتقسم من جهة انواعها الى ثلاثة اقسام ، اولاً المعرفة المؤرخة وهي تقوم بمجرد معرفة الشيء . ثانياً المعرفة الهندسية وهي تبحث عن الكمية والنسبة فقط . ثالثاً المعرفة الفلسفية وهي تفحص عن الذي منه يكون الشيء على هذه الصفة او على غيرها .

قسمة كلام العرب

يقسم كلام العرب الى نثر ونظم ، والنثر الى المحادثة او لغة التخاطب والخطابة والكتابة التي تؤدى بالخط . والنظم الى الشعر وقصائده وفنونه واوزانه وقوافيه . ويقسم العرب الشعر الى الفخر والحماسة والمدح والرثاء والعتاب والغزل والتشبيب وغيرها من الاغراض . وهذا كله في نظر الشاعر غير العربي نوع من انواع الشعر يسمونه الشعر الغنائي .

العلوم العربية قبل الاسلام

تقسم المعارف عند العرب، قبل الاسلام الى علوم عربية اصلية قتضتها اللغة العربية واساليبها وقرائح اهلها، وعلوم رياضيــة، واخرى طبيعية ونحوها واكثرها دخيل .

العلوم العربية الاصلية

تشمل اللغة والشعر والخطابة والانشــاء والنسب والامثال والاخــبار ومجالس الادب والاسواق الادبيــة والاقتصادية والاجتماعية . وقد تطورت هذه العلوم فيما بعد وتشعبت وتعددت بالافتراع والاشتقاق .

العلوم الرياضية

منها الفلك وعلم الاساطير الميثولوجية والتوقيت

العلوم الطبيعية

الطب، البيطرة، الخيل، مهاب الرياح، وعلم الانواء . ومن المعارف الطبيعية التي توصلوا اليها(١) استنباط الماء ويسمونه «الريافة» فانهم كانوا يعرفون وجود الماء في مكان ما بشم التراب او برائحة بعض النباتات او نحو ذلك . (٢) الاهتــداء في البراري بامارات يعرفونهــا بالاتربة او بالنجوم (٣) نزول الغيث وهو من قبيل الظواهر الجوية (٤) الملاحة وقــد اضطروا الى معرفتها لاسفارهم الى الهند والحبشة للاتجار .

علوم ما وراء الطبيعة

الكهانة والعيافة والقيافة وتعبــير الرؤيا والزجر والخط في الرمل .

فالعلوم العربية الاصلية كانت مطمح طلاب الادب بعــد الاسلام ولا تزال . فان بلاغــة الجاهلية وشعر الجاهلية وامثال الجاهلية لا يزال الادباء يستلهمون صورها وينسجون على منوالهــا الى اليوم . اما العلوم الطبيعية فقد جرّروها بما اخذوه عن اليونان والفرس، وكذلك الرياضيات . اما علوم ما وراء الطبيعة فبعضها انقرض كالكهانة والقيافة والزجر، وبعضها تبدل وتقدم كتعبير الرؤيا وخط الرمل .

العلوم الحادثة في عصر الراشدين — جمع القرآن وتدوينه في المصاحف

لم يحدث في عصر الراشدين علم ولكن فيه وضعت جرثومة العلوم الشرعية بجمع القرآن وحفظ الحــديث . والقرآن لم يظهر مرة واحدة وانما ظهر تدريجياً في اثناء عشرين سنة على مقتضى الاحوال، من اول ظهور الدعوة الى وفاة النبي، فبعضه في مكة وبعضه في المدينة . فكان كلما تلا النبي آية او سورة كتبوها على صحف تلك الايام، وهي الرقاع من الجلود، والعريض من العظام : كالاكتاف والاضلاع، وعلى العسب وهي قحوف جريد النخل، واللخاف : وهي الحجارة العريضة البيضاء . فتوفي النبي سنة ١١ هـ . والقرآن اما مدون على امثال هذه الصحف او محفوظ في صدور الرجال وكانوا يسمون حفظته القرّاء . ومع شدة عناية القراء بحفظ القرآن وضبطه لم ينجوا من الاختــلاف في قراءة بعض آياته باختلاف قبائل القراء . ولذا عوّل ابو بكر على تدوين ما يدوّن منه بنــاء على اشارة عمر بن الخطاب، رجل الاسلام والمسلمين، لئلا يذهب منه شيء بموت اهله على اثر الحروب التي شنها على اهل جزيرة العرب الذين ارتدوا عن الاسلام (حروب الردة) وقتل فيها جماعة كبيرة من الصحابة والقراء .

ليس في آثار العرب ما يدل على انهم كانوا يعرفون الكتابة الا قبيل الاسلام، والسبب في ذلك ان البداوة كانت غالبة على طباعهم، والكتابة من الصنائع الحضرية . فجاء الاسلام والكتابة معروفة في الحجاز ولكنها غير شائعة ولم يكن يعرف الكتابــة الا بضعة عشر انساناً اكثرهم من كبار الصحابة .

العلوم الحادثة في العصر الاموي

العصر الاموي فاتحــة عصور التمدن الاسلامي والدولة الاسلامية، لان الاسلام قبله كان ديناً لا دولة . وفي هذا العصر بدأ تكوّن اكثر العلوم الاسلامية وهي التي اقتضاها الاسلام، وتقسم الى ثلاثة اقسام : العلوم الشرعية اي العلوم الدينــية الاسلامية المستخرجة من القرآن الكريم والحديث، اهمها علوم القرآن والحديث والفقــه، ولكل منها فروع تولدت بتوالي الاجيال وكانت في العصر الاموي في دور تكونها، وهي يومئذ القراءة (قراءة القرآن) والتفسير والحديث وضبط الحديث والفقه

العلوم اللسانية

ويراد بها العلوم التي ترجع الى ضبط اللغــة العربية كالنحو والصرف والادب ونحوها وهذه بدأت بالتكون في العصر الاموي ولم يتكون منها في هذا العصر غير النحو ويلحق بــه الحركات والاعجام .

التاريخية والجغرافية

لم يكن عند العرب الجاهليين من التاريخ الا اخبار متفرقة

تروى عنهم سماعاً ، ليست من التاريخ في شيء . فلما ظهر الاسلام واشتغل المسلمون بالفتح والحرب حتى استتب لهم الامر ونزحوا الى الجهاد تدرجوا في وضع التاريخ مثل تدرجهم في سائر العلوم الاسلامية . وهو قسمان : تاريخ المسلمين واعمالهم وتراجم رجالهم وهذه قد استخرجها العرب من اعمالهم ، وتاريخ الامم الاخرى ، وهذه بدأوا بتعرفها ونقلها في زمن بني امية لان الدهاة من الخلفاء الامويين كانوا من اكثر الناس رغبة بمعرفة اخبار مشهورات الامم الاخرى .

ان التاريخ ولد في زمن بني امية ولم ينضج الا في العصر العباسي . والعرب من اسبق الامم الى تدوين التاريخ بعد ان تمدنوا . وهكذا الرومان لم يؤلفوا فيه الا بعد تأسيس دولتهم بسبعة قرون ، واول مؤرخيهم يوليوس قيصر ، اي بعد استقرار الدولة . واليونان بدأوا التاريخ عندهم بمواضيع خصوصية ولم يدونوا التاريخ العام الا في زمن هيرودوتس ، اي بعد انشاء دولتهم ببضعة قرون .

العلوم الدخيلة في العصر الاموي

نريد بالعلوم الدخيلة تلك التي نقلها المسلمون الى اللغة العربية من علوم اليونان والفرس والهند والسريان وغيرهم . وهذه نقلت في العصر العباسي كما هو مشهور . والعرب بدأوا بنقلها من ايام بني امية وان لم يبق من نقلهم شيء الى الآن .

العلوم العربية في العصر العباسي

اشتدت الحاجة الى التدوين في مبدأ الدولة العباسية لاتساع ممالك الاسلام ولدخول كثير من الامم المتحضرة فيه ، ولتعدد الحوادث التي لم يكن لها نظائر فيما سبق من السنة . فهب العلماء الى تهذيب ما كتب في الصحف المتفرقة وما حفظوه في الصدور ، ورتبوه وبوبوه وصنفوه كتباً . وكان من اقوى الاسباب لاقبال العلماء على التصنيف حث الخليفة ابي جعفر المنصور عليه وحمله الائمة والفقهاء على جمع الحديث والفقه ، وبذله في سبيل ذلك الاموال الجزيلة . ولم يقتصر على معاضدة العلوم الاسلامية ، بل اوعز الى العلماء والمترجمين من السريان والفرس ان ينقلوا الى العربية من الفارسية واليونانية ، فنون الطب والسياسة والحكمة والفلك والتنجيم والآداب .

وتابعه في ذلك اولاده واحفاده حتى زخرت بحور العلم واخترعت الفنون وتفرعت المسائل ودونت الكتب في كل فن وتكاثرت العلوم والآداب في ابان التمدن الاسلامي حتى تجاوز عددها ثلاثمائة علم في الشرع واللغة والتاريخ والادب والشعر وغيرها . واكثرها نشأ من القرآن او تولد خدمة له . ولا يكاد يخلو علم منها من تأثير القرآن عليه رأساً او ضمناً . ولا غرو في ذلك فالقرآن الكريم هو اول كتاب اخذ العرب في قراءته وحفظه . واليك الآن اهم العلوم التي تفرعت من القرآن او نشأت لخدمته :

١ – النحو

وقد وضع لضبط قراءة القرآن ، ومن ابوابه العطف والنعت والاعجام .

٢ – الادب وعلومه

المراد به معرفة كلام العرب وضبط معاني الفاظه وتفهم اساليب عبارته . وقد بعث على وضعه بالاكثر تفسير القرآن . ومنه يتفرع اثنا عشر علماً : الصرف والنحو والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع والعروض وغيرها . والفضل في تعجيل ظهورها للفرس وقد جمعها الشيخ حسن العطار بقوله :

نحو وصرف عروض بعده لغة ثم اشتقاق قريض الشعر انشاء
كذا المعاني بيان الخط قافية تاريخ هذا لعلم العرب احصاء

وبعضهم زاد البديع وآخر استحسن زيادة التجويد . ومنهم من اوصلها الى خمسة عشر . وبالجملة فباب الزيادة والنقص فيها مفتوح ، اذ حصرها وتقسيمها في ذلك جعلي لاحصري . ولكن سيتبين ان هذه التي ذكرها الشيخ العطار هي الجديرة بان تسمى مباحث العربية . وكذلك انهى الزمخشري ايضاً علوم الاداب الى اثني عشر علماً فاتفق في عددها مع الشيخ الموما اليه ولكنه يختلف عنه في بعض اسمائها فقال هي : فن اللغة — وعلم الابنية — والاشتقاق — والاعراب — والمعاني — والبيان — والعروض — والقوافي — وانشاء النثر — وعلم قرض الشعر — وعلم الكتابة — والمحاورات وهو ما تحاور به صاحبك من نظم او نثر او حديث او نادرة او مثل سائر ومعرفة ايام العرب وانسابها .

وقد نظمها النواجي ايضاً فقال :

لغة وصرف واشتقاق نحوها علم المعاني والبيان بديع
وعروض قافية وانشا نظمها بكتابة التاريخ ليس يضيع

وفصلها السيد الشريف الجرجاني فقال ان علم الادب يشمل جميع العلوم العربية وهو علم يحترز به عن الخلل في كلام العرب لفظاً وكتابة ، ومن اقسامه الاصول : وهي العمدة في ذلك الاحتراز ، ومنها الفروع .

اما الاصول فالبحث فيها اما عن المفردات من حيث جواهرها وموادها : وهو علم اللغة ، او من حيث صورها وهيئتها : فعلم الصرف او من حيث انتساب بعضها الى بعض بالاصالة والفرعية : فعلم الاشتقاق ، واما عن المركبات على الاطلاق ، فهي باعتبار هيئتها التركيبية وتأديتها لمعانيها الاصلية علم النحو ، وباعتبار افادتها لمعان مغايرة لاصل المعنى : علم المعاني ، و باعتبار كيفية تلك المعاني ، او باعتبار كيفية تلك الافادة في مراتب الوضوح ، فعلم البيان ، واما عن المركبات الموزونة فانها من حيث وزنها علم العروض و من حيث اواخر ابياتها : علم القافية

اما الفروع فالبحث فيها اما ان يتعلق بنقوش الكتابة : فعلم الخط ، او يختص بالمنظوم في العلم المسمى بقرض الشعر او بالمنثور فعلم انشاء النثر من الرسائل والخطب ، او لا يختص بشيء منها : فعلم المحاضرات ، ومنه التواريخ . واما البديع فقد جعلوه ذيلا لعلم البلاغة (المعاني والبيان) لا قسما برأسه .

٣ – الحديث

وقد وضع لتفهم الحديث وتولد من ذلك بتوالي الازمان العلوم المتعلقة بالحديث كشرح الحديث وناسخه وتأويله ورموزه وغرائب لغاته وتلفيقه واحوال الرواة ونحو ذلك .

٤ – التفسير

والتفسير نفسه لما نضج تفرع الى علوم عديدة ذكرها بالتفصيل صاحب مفتاح السعادة في موضوعات العلوم وهي تزيد على سبعين علماً .

٥ – الفقه

ولما صار الاسلام دولة احتاج امراؤه الى ما يقضون بـه بين رعاياهم في احوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية ، فكان معولهم على القرآن والحديث ، فاستنبطوا منه الشريعة واحكامها وهو « الفقه » بفروعه المشهورة كعلم النظر والمناظرة والجدل والفرائض والشروط والقضاء والتشريع والفتاوى ونحوها .

٦ – التاريخ

ولما اشتغل المسلمون بتفسير القرآن وجمع الاحاديث احتاجوا الى تحقيق الاماكن والاحوال التي كتبت بهـا الآيات او قيلت فيها الاحاديث فعمدوا الى جمع السيرة النبوية ودونوها . وقد جرّهم ذلك الى النظر في الرواة وتراجمهم وسائر احوالهم . وقسموا رواة كل فن الى طبقات . واضطروا لتحقيق مسائل الحـديث والفقه والنحو والادب الى البحث في اسانيدهـا والتفريق بين ضعيفها ومتينها .

٧ – الجغرافية

ويقال نحو ذلك في الاسباب المساعدة عـلى وضع علم الجغرافية او تقويم البلدان ، والاسراع في نضجه ونموه ، كالاسفار في طلب الحديث من حملته ، والحج الى مكة ، والرغبة في تطبيق القواعد الفقهية كالخراج والجزية . ويفتقر ذلك كله الى معرفة احوال البلاد وكيفيـة فتحها صلحاً او عنوة . فجرهم ذلك الى تعرّف البلاد ومواضعها والنظر في فتوحها .

العلوم الدخيلة في العصر العباسي

كان من جملة افضال التمدن الاسلامي على العلم انـه جمع شتات زبدة العلوم من اليونانية والفارسية والهندية والكلدانيـة والقبطية ، الى العربية وزاد عليها وبوّبها ورقاها .

وقد طرأ على العلوم العربية الاصلية واللغة ، في العصر العباسي الاول تغيير كثير في الفاظها بما نقل اليها من العـلوم الدخيلة وما اقتضاه التمدن وما استلزمه التوسع في العلوم الاسلامية وغيرها من الاوضاع والمصطلحات العلمية والفلسفية والاداريـة ، لتأدية ما حدث من المعاني الجديدة مما لم يكن له مثيل في لسان العرب كما هو شأننا اليوم من نقل العلم الحديث الى لساننـا . وكانوا يومئذ احوج الى اقتباس الالفـاظ الاعجمية وتبديلها ، فاحدثت تنوعاً في معاني الالفاظ العربية . واليك امثلة من ذلك :

الالفاظ العلمية العربية

اهمها الالفاظ الطبية ولم يكن منها ، في الجاهلية الا مفردات كالحجامة والكي ونحوها ، فحدث منها ما يدل على فنون الطب كالكحالة والصيدلة والتشريح ، والجراحة والتوليد ، ومنها ما يختص باصطلاحات كل فن كاسماء الرطوبات والامزجة والاخلاط من الحار والبارد والجاف واليابس ، والسوداء والصفراء والبلغم والنبض ، والتخمة والانـذار والهضم والبحران والمشاركات ، واسماء الادوية كالمسخنات والمبردات والمرطبات والمجففـات والمسهلات والقطرات والمخـدرات والاستفراغات والسعوطات والادهان والمراهم والاطلية . وافعال تلك الادوية مثل ملطف ومحلل ، ومنضج ومخشن ، وهـاضم وكاسر الرياح ، ومخمر ومحكك ، ومقرع وأكـال ولاذع ، ومفتت ومعفن ، وكاو ومبرد ومقوّ ، ومخـدر ومرطب ، وعاصر وقابض ومسهل ، ومدر ومعرق ومزلق ومملس وترياق وغير ذلك .

ومن الالفاظ الجراحية الفسخ والهتك والرض والخلع والفتق

الاديب



☆

— لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها من شهر كانون الثاني (يناير)

— تدفع قيمة الاشتراك مقدماً وهي :

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة لبنانية

في الخارج : ١٥٠ قرشاً مصرياً او ٦ دولارات ونصف ترسل حوالة بريدية دولية اوحوالة على احد المصارف

— المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

*

لدى الادارة مجموعات من الاديب تطلب بالثمن التالي :

السنة الاولى ١٩٤٢	٣٥ ليرة	او ٤ جنيهات انجليزية	
« الثانية ١٩٤٣	٢٥ «	او ٣ «	«
« الثالثة ١٩٤٤	١٥ «	او ٢ «	«
« الرابعة ١٩٤٥	١٥ «	او ٢ «	«

ويحسم ٢٠ بالمئة لمن يطلب الثلاث مجموعات الاولى معاً

*

ادارة الاديب : باب ادريس ، شارع الكبوشية

*

صاحب المجلة ورئيس تحريرها : البير اديب

*

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :
مجلة الاديب — صندوق البريد رقم ٨٧٨
بيروت — لبنان

وتفرق الاتصال ومفارقة الوضع والجبار . ناهيك باسماء الامراض او اعراضها كالصداع والكابوس والصرع والتشنج واللقوة والرعشة والاختلاج ، والسرطان والشلاق والشترة والشرناق والخانوق والذبحة والربو وذات الجنب وذات الرئة والجهر والضمور والخفقان والغشيان واليرقان والاستسقاء والويلة والاسهال والزحير والسحيج والسدد والهيضة والبواسير ونحو ذلك مما لا يمكن حصره .

ومن اوصاف الامراض انواع الحميات كالمزمنة والحادة والمختلطة والغب والمطبقة والربع والدق وغيرها . ومن الالفاظ التشريحية كاسماء الاوعية الدموية ورطوبات العين وسائر الاعضاء الباطنية التي لم يكن العرب يعرفونها .

ويليها الالفاظ الفلسفية ونحوها من مصطلحات الفلسفة والمنطق وما تفرع منها كعلم الكلام والتصوف والفقه ونحوه وهي كثيرة تفوق الحصر . كقولهم : الكمون والظهور ، والقدم والحدوث ، والاثبات والنفي ، والحركة والسكون ، والمماسة والمباينة ، والوجود والعدم ، والطفرة والاجسام والاعراض ، والتعديل والتحرير والمعاف ، من اصطلاحات علم الكلام . والماجس والمريد والسالك والمسافر والشطح والقطب والهيبة والانس والبقاء والشاهد والفترة والمجاهدة من اصطلاحات التصوف

ومن مزايا عصر الدولة العباسية الثالث نضج العلم فيه وظهور علم الكلام والتوحيد من العلوم الاسلامية الشرعية والموسوعات اللغوية والمعاجم العربية ، وتعدد العلوم كالتدبير المنزلي والسياسة والاقتصاد السياسي وعلم العمران والانشاء والترسل والمراسلة والمحاضرات والروايات والقضاء والادارة والقصص والخرائط الجغرافية والتصوف والصيدلة والفنون الجميلة والسير وتواريخ الدول وتراجم الجماعات وتواريخ البلاد والمدن والرحلات وعلم النقد الادبي والتاريخي .

هذا بعض ما رأينا ذكره باقتضاب من "تطور العلوم العربية والدخيلة حتى العصر العباسي الثالث" ، مرجئين الاستفاضة بما طرأ على هذه العلوم من تطورات بعد هذا العهد الى فرصة اخرى خوفاً من سأم القارىء الكريم وخشية الخروج عن الصدد (*)

يوسف اسعد داغر

(*) ضربنا صفحاً عن ذكر المصادر والمراجع العديدة في ذيول الصفحات لئلا نبهظ القارىء الكريم

الفرح الكئيب



لعبد القادر السبجي

☆

القاهرة

☆

عندمـا تعبر الوادي اصداء الغاب
يستجيب لها قلبي ملء الاعماق
والعصافير بين الظلال عبر الحقول
تدف وتشدو بفرح وحبور
حتى لينخنق نفَسها لفرط النغم
تباركتم ايها الصغار المنشدون
انتم يا من توقعون اللحن الموزون
من غير قيثار او يراع
توقعونـه هادئاً يتعالى وينقطع
ويفنى في لجة المجهول

***

ولما انفتحت زرقة الاصباح
وذهب الليل في هـدأة الاغمار
دقت اجـراس القريـة
وغابت اصداؤها في الجنوب
فلم يعد قلبي يشدو بفرح كالعصفور
بل وجّه صلاة الفجر الى الله
اي ربي انني اعبدك
ولم اتبين ملامح وجهك!
لكني لما شاهدت جمال الفجر
ادركت انك ابهى بمكان

وحينما تغشى الاعالي سحب الشمال
حين يسري فضي الضباب
يكسو المخاضر ومـا خلف الشعاب
وما غاب من فجاج ماها من نفاذ
يسري حالماً كابخرة من دخان
ذاهبة من اكواخ قرى الجبال
فهناك ستمتد اشف الاطياف
انـه قوس كقيثار [1]
لكنه من غيم مضاء !
ابـداً اوتاره ملونـة
متماوجـة ومـا تهـاب امتزاج!
فيـا له من تأثير بالقرب منه
اذ المسه برفق واذ اتملكه
وتغيب يداي بين امواه من شفوف
فكم بفتون سأسنده لصدري
لاشيد بجمالك يا ربي

***

لكن عبثاً يتعالى صوتي بالانشاد
ومهما ظل الايقاع صاعداً باتزان
هـادئاً يتعـالى فسينقطع
ويفنى في لجة المجهول

***

كانت كلمتي لامعـة كالضيـاء
ثم غشيهـا فجـأة
طيـف مـن ضبـاب
آه ان الليـل ليكـاد ينقضي
والقمر لم يجتز بعد اغمار الظلال
لقد ضات افكـاري باجنحة
ولا اعـلم الى اين
وادعـو ولا مـن يجيـب
اكـثر واكـثر يغشى الهم قلبي
واضـواء النجوم لتكـاد تختفي
اني اسائل في اي فجاج لم يسلكها بعد احد
ضـل الجـدول سبيله الى البحر
واذا ما اختنق انشادي كنفس مكروب
فستعلم وحدك ما في نفسي من عذاب

---

(١) المراد قوس قزح لقد سماه احـد الشعراء المدرسيين Classic وهو عبد المحسن — تاج الله —

الانسان والمعرفة

*

بقلم فؤاد الونداوي

بغداد

للخاصيات البشرية ومظاهرها مصدران رئيسيان ، اصطلح (بالقلب) دلالة على احدهما الذي هو مصدر الاحساس والعاطفة والايمان ، كما اصطلح (بالعقل) دلالة على الآخر الذي هو مصدر للادراك والتفكير والشك ، وقد درج اكثر الفلاسفة والعلماء — مذ تفلسف الانسان — ان يضعوا هذين المصدرين موضع النقيضين وافترضوا بينهما اختلافاً وصراعاً قد يميل فيعنف ، رغم انهما مصدران للمعرفة وجانبان رئيسيان لها .

فالعقل ملكة نظرية لاشأن لها بالجانب العملي ، ولكنها تؤثر في السلوك على نحو معين ، ولها اثر ايجابي فيه ، وذلك عند توجيهها للدوافع البشرية التي تنبعث عن رغبات مختلفة .

والعقل يعدل الرغبة ويطامن من غلوها ، وبتعبير اصح في مكنة العقل — كما قال آرثر شوبنهور — ان يكون لارادة الانسان ماتكونه السرج والشكيمة للجواد الجموح ، فيسيطر عليها ويوجهها الوجهة التي يريدها ، فضلاً عن انه يتصدى الامور الاستهوائية والمفاهيم الايحائية عند الافراد فيعمل على استبعاد كل مالا يصمد امام التفكير — النقد والتمحيص — وبذلك يحقق للفرد استقلاله الذاتي وييسر له ارادة سليمة في قوتها ولولاه لكانت تلاقي من قوى الوجدان ونفوذها عنتاً وقسوة بل هزيمة ، فحين تتحكم في الانسان عواطفه لايرى من الحق والمعرفة الا جانباً واحداً ، وانما سمو الانسان بالتحرر من تحكم الغريزة والعاطفة . وكلما فعل العقل فعله في العواطف ، يصبح الفرد امتن اساساً وابعد عن ان تزعزعه الميول والرغبات الجامحة ، اذ العقل في جنب العاطفة بمثابة القانون حيال افراد المجتمع ، ولئن كان الانسان يعيش بعواطفه وغرائزه فهو يتقدم بعقله وتفكيره .

ومع ذلك فان غلو العقل في وجهته قد يخلق بدوره مرضاً ، فطالما طغى على المصلح الدنيوي عقله ، فاعتسف قياده ووقفه العقل امام فراغ مزعج لا تملأه وسائله واغانيه ثم لا تجديه نفعاً كل المحاولات المنصرفة الى كبت ذلك الشعور الممض ، الذي اورثه اياه تفكيره . شأنه في ذلك شأن المصلح الديني الذي اسلم دفته لعواطفه ووجدانه ، ففسحت له المجال لان يضيف الى الاصل الصحيح عارضاً فاسداً ، فخرج بالدين عن معناه الذي ينبغي ان يدل عليه وانحرف به عن غايته التي ينبغي ان يسعى اليها . وهكذا ينتهي العقل انتهاء خبيثاً ، كلما انبرى مستقلاً دون ما عاطفة او ايمان .

والعقل لا يستكين او يتورع بل يلج بصاحبه هنا وهناك ، ويخرج به منهوكاً غارقاً في يأس قاتل وشك مرير وحيرة ممضة ، فتهون امامه الحقائق ويعتوره قلق دائم ، والقلق يفسد الحياة على

الاحياء – كما قال فرانسيس بيكون – ذلك لانه اي الكائن ولج بعقله مقاماً لا يدركه بالعقل حسب او بوسائطه الخالصة ، وانما هو قد ينال بالمشاعر المرهفة التي تضيء النفس بنور يشعرها بالطمأنينة والرحمة . . .

اما العاطفة فانها وان كانت تقف لشك العقل بالمرصاد ، وتدحره بايمانها عندما يحاول الولوج في قيم الاخلاق ، ويلتمس للخروج عليها تأويل باطلة ، فانها بحاجة الى مناوءة التفكير لها ، لما فيها وفي ملكاتها من نزعة تدميرية ، اذا ما اطلقت لها أعنة التعبير الساذج . والعاطفة تخضع لمبدأ اللذة – والألم وهو الميعاد الوحيد لتوجيه رغباتها – لذا يجيء اندفاعها أبداً وراء اللذيذ والابتعاد عن المؤلم ، مع تغاضيها عن بعض الضرر في بعض اللذة ، وبعض الفائدة في بعض الألم · كما ان للعاطفة استقلالاً ذاتياً اذ هي غير مسيرة ولا بمنقادة ، واذا تملكتها سلطة او تحكمت في رقابها عوامل ، فهي محض داخلية تنبعث من الاعماق وفيها قوة كامنة توجهها ولكن الى الوجهة التي لا نطمئن اليها والى احكامها ونتائجها ، فننحاز عند ذاك الى جانب العقل الذي هو المرشد الاول والاخير في التمييز والمعرفة كي يتدارك الشطط الواقع .

العقل يشك وهذه قوته ، والقلب يؤمن وهذه ميزته ، الشك يمقت التصديق الساذج ويأبى الايمان المندفع وينكره ، ولا يطمئن الى ما تواضع عليه الناس ، ويضع كل شيء تحت سلطة التفكير ويخضعه للرفض والانكار ، ولكن هناك حقائق بلغت حداً من التعيين حتى لتستعصي على الشك ، ولا تلين للنقد او تأبه بالرفض والانكار ، فاذا هجر الانسان الايمان بها فمن المحال ان يؤديه الشك الى منقلب اصح واسلم .

ان الحياة تريد منك ان تؤمن احياناً ليشملك الاطمئنان الذي يجب ان يلازم حياة الانسان ، ففي الاطمئنان تفاؤل وفي التفاؤل رجاء وفي الرجاء امل وفي الأمل الحياة ·

وهي تطلب منك في احيان اخرى ، ان ترجع فيما يبدو لك من اثر الى العقل وحده ، لتحقق لديك من نتائج الشك الخيرة ما قد يغلفه كساء الايمان المطلق .

اننا نؤمن لنحتفظ بما قد يجرفه الشك ، ونشك لنهتدي ونصل الى ما قد يواريه الايمان ويخفيه . . . الفكر يعطينا المعرفة ، والعاطفة والوجدان يهبانا الاطمئنان ، وايا كان هو الانسان فلا يستطيع الاستغناء عن احدهما ، ففي الاول معرفة وفي الثاني تدارك لقصور العقل .

لقد اتخذ بعض الفلاسفة (العقل) عماداً وسناداً لابحاثهم ، وعليه وحده اعتمدوا وعولوا في امورهم ، ولكننا رأينا كيف قوضت فلسفتهم بفؤوسها كل شيء « ثم وقفت بين تلك الانقاض الخربة لا تجد لها وقوداً يذكيها ، فقد انتهت فلسفتهم بان نفوا الوجود كما نفوا العقل نفسه »·

العقل وسيلة المعرفة ووسيلة الاختبار ووسيلة التوجيه ، ولكن العاطفة طريق الرغبات والاحساسات ، لذا فان تزاوج الفكر مع العاطفة يتصف بصفة الضرورة .

القلب يؤمن والايمان يخلق العقيدة ، والعقل بدوره يبيح الاعتقاد كما يحتمه الشعور الاخلاقي – والعقيدة في ذاتها متممة الشك – الذي يقف عند حد معين – وهما خطوتان متتابعتان تكمل احداهما الاخرى ، ولا بد من تعاونهما لتحصيل المعرفة ، بل قد تكون العقيدة مرحلة من مراحل الحياة العقلية .

ولعلنا لانجد قولاً يؤيد زعمنا هذا بشأن العقيدة اوضح واروع من هذا القول القديم « لا بد لكي تعقل ان تعتقد » . ومع ذلك فالعقيدة لا تكون مفروضة وواجبة كخطوة نهائية للمعرفة ، الا عند عجز العقل عن مواجهة فكرة تفرض نفسها على الذهن فرضاً مثل فكرة الآله ، لذا كان من الواجب المحتم ان نعتقد لان النفوذ العقلي المطلق محال .

اما من وجهة الدين ، فالبرهنة على وجود الآله امر ينتهي اليه العقل ، ولكنه يجيء فكرياً خالصاً مجرداً ، فهو قد يثبت بسلاحه – وهي الفلسفة – ان مجرد وجود الانسان او مجرد استمرار الجنس او تصميم الطبيعة دليل على وجود الآله ، ولكنه مع ذلك يفتقر الى ابسط دليل مادي ، ومن هنا جاءت خيبة الفلسفة القديمة ومن بعدها اختها الحديثة ، ولهذا اصبح من المحتم ان يتولد لدى الفرد يقين او شبه ادراك عقلي ، يكون فوق مستوى المعرفة الحسية لا مجال للتحوير او التبديل فيه ولا ينال منه الشك لانه شعور باحساس باطني ، وفي خضم هذا اليقين يتولد

الاعتقاد بوجود الذات العليا .

اما العقل وحده فانه قاصر عاجز ، لانه لا يستطيع ان يتعدى اقرار الظواهر الحسية في محاولته ، وان مضى الانسان به الى ابعد من ذلك ، تورط في الخطأ والايهام وانتهى غالباً بالتناقض او بالحيرة .

وفي ذلك قال الفيلسوف الفرنسي جان جـاك روسو « ان شعور القلب شيء اسمى من منطق العقل » . وفيه قال بسكال « ان للقلب اسباباً خاصة به لا يمكن ان يفهمهـا العقل . وقال آرثر شوبنهور بدوره « كثيراً ما يكون الانسان عرضة للاخطاء اذا ما حـاول ان يحكم عقله وتأمله في كل شيء » . ويرز رابع منا وهو الاستاذ احمد امين ليقول : ان العقل كثيراً مـا يكون خير مرشد وافضل هاد ولا سيا في الحياة المدنية ، ولكن اذا اشتدت أزمات الحياة فلا بد ان نلجـأ الى الشعور والفطرة — ومصدرهما القلب — نستلهمها الارشاد ونستهديهما الطريق .

ولقد تعمق الفلاسفة في ابحاثهم طويلاً ، وافاضوا في تعاريفهم واكثروا من شروحهم وتعليقـاتهم في شتى النواحي ، حتى اذا جاؤوا الى الحقيقة التي يدور حولهـا كل بحث فلسفي ، قـالوا بلسان الفيلسوف الانكليزي جون لوك « لا ينبغي ان نعدو حدود ما تستطيعه ملكاتنا » .

فالايمان اذن فطرة في الانسان ، لان في الايمان — كما قلت — تفاؤل ، وفي التفاؤل رجـاء ، وفي الرجـاء أمل ، وفي الأمل الحياة . وقد خلق العقل ليكون اداة للحياة ووسيلة لرقيهـا وكمالها ، فان رمنا الاغتراف من المعارف الصحيحة تطلب الأمر ان نجرد انفسنا من عواطفنا ، اذ ان العاطفة تميل الى البحث عن المعرفة لا لذاتها بل لتأييد وجهة نظر او مبـدأ او سلطة ، بينما التفكير المجرد يتصف بموضوعية حـادة لا دخـل للنفس والشخصية فيها .

ومع ذلك يجب ان نفتح ثلمة لعواطفنا تتسرب منها الى افكارنا ، فقد تفسد علينا الحياة اذا نحن عملنا على كبتها ، ثم نوقف لها العقل بالمرصاد ونتخذه رقيباً عليها ، يحد من طغيانها وغلوائها ، وبذلك نشتق منه معياراً نوجه به رغباتنا ونكيف بواسطته حركاتنا وجهودنا .

ولم يختلف الانسان عن سائر الحيوان ، الا في عدم تحرر ارادته — والارادة رغبة او غريزة — من ربقة نفوذ العقل ، ولم يتميز عنها الانسان الا في خضوع (آليته) لحكم العقل . ولهذا قالوا ان العبقري هو من كان معرفة في معظمه وارادة في اقله .

وبعد ... فلا يستقيم للمرء أمره الا اذا سار على هذا النهج وسلك هذا السبيل ، الذي لا يلتوي ولا يجور ما دامت الحقيقة حائرة . فيترك قياده للملكتين يخفف العقل من غلواء العـاطفة ويكبت بهيميتها ويكيف خلجاتها ، كما تتدارك العاطفة بدورها شطط العقل وتغض من طغيانه ، ولن تكون الحياة يسيرة الا اذا اخذ المرء نفسه بهذه الحدود الجلية . فالعاطفة عمياء حتى يهديها العقل ، والعقل جامد الى ان تنفخ فيه العاطفة روح الحياة . ان البشرية تنشد في حياتها غاية واحدة الا وهي الحق والحق هو الخير ، وهذا الخير الذي يدركه العقل ادراك معرفة انما يقوى اثره في نفوسنا — كما قال رينيه ديكارت — لو مثلته لنا عواطفنا شيئاً جميلاً ، اذ لا يكفي ان نعلم الخير او الحق ، بل يجب ان نرغب فيه بعواطفنا ايضاً .

بغداد — فؤاد الونداوي

هل تحب ولدك

☆

ان حب الوالد لا يعني تدليله وحسب بل ان نوفر له وسائل التثقيف ، واهم هذه الوسائل ان نضع بين يديه كتب مطالعة تجمع بين اللذة والفائدة .

ونظراً لافتقارنا الشديد الى مثل هذه الكتب رأت جمعية « خريجات كلية البنات الاميركية » في بيروت — بالاشتراك مع النادي الثقافي العربي ان تبدأ بحملة للحصول على كتب مطالعة للاولاد .

وهي تقترح على كل من له المام بتعليم الاولاد او تدريبهم ان يهتم باعداد كتب مطالعة للاولاد من سن خمسة — ٧ اي بدء قراءة الولد .

وذلك في ابسط لغة ممكنة اي اقرب ما يكون الى اللغة الكلامية ، قصيرة العبارات مرتبطة الافكـار ، مقسمه الى فقـرات في موضوع قصصي مستوحى من بيئة البلاد :

مليء بالالفاظ المحسوسة القابلة للتصوير اي التي تدل على الحركة والصوت واللون والشكل والشم واللمس والذوق بحيث تفسح مجالاً الصور الكثيرة الملونة .

وما يدخل في مشاهدة اولادنا واختبارهم من حيوانات واشياء واعمال والعاب واشخاص وخيال

واخر موعد لقبول الكتب ١٥ تشرين الاول ١٩٤٦ ويقبل الاشتراك في المشروع اكثر من كتيب واحد وتقبل الكتيبات متسلسلة .

حجم الكتيب من ٦٠٠ — ٧٠٠ كلمة ويدفع عليه ٢٥ ليرة اذا حاز القبول وترسل الاجابة باسماء مستعارة (والاسم الحقيقي داخل غلاف مختوم) الى العنوان التالي : هل تحب ولدك بيروت ص . ب ٥٧٦ لبنان

اديب التقي

☆

مرثاة في فقيد الادب والبحث الاستاذ اديب التقي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

☆

لعبد الحكيم مراد

أكما حسبت ؟ ام الردى دهياء   عز الشفاء بها واعيى الداء
ما انفك في نفسي على اعجازه   حتى انجلى ، بدليله ، الايماء
وعلمتُ بالايمان ما لم يكتشف   جهد الظنون مداه والابداء
سبقت مداركُ كنت توقد جهدها   ويشع فيها الوهم والايحاء
هو ما تحب سكينة مطوية   علل النفوس عليه والادواء
عيَّ المعزى بالسقام فجادها   منه ، على غيَرِ الزمان ، عزاء
وابو العزاء «يسوع» ما اغنى لها   عنه يد ، بسموحه ، بيضاء
ان يعبر من عرض الحياة حنانها   هل غيره ، من جوهر ، ابراء
دنيا تعق الذات ، لا تحنانها   بيد ، ولا في قلبها التأساء
لم تبصر الايام في جنباتها   قبساً ، فكل رحابها ظلماء
هي فتنة قد غار منك نذيرها   فازّينت فيها المنى العمياء
لولا اغاريد البيان تنوبها   حار العزاء بها وعز مضاء
تُحمى الحياة بان من خلف الحيـ   ـاة مشاعلا تهدى بها وتضاء
نظم النبيين الجلال بدربها   ومضى بها يتطوع الشعراء
من خوفهم امن القلوب وبالهدى   من تيههم لمعت لها الاجواء
العالم الادنى ، على معراجهم ،   في العالم الاعلى له اسراء
نظموا غد التاريخ فوق سطورهم ،   قطع الخلود لنظمهم املاء
بذروا الجمال من السماء على الثرى   فجزوا بكيد في الاثام وباءوا
عاشوا على اوهامهم لم يعتنق   آلامهم صحب ولا عشراء
مثل المسيح وصحبه في عالم   ملء الشقاوة ، عزل غرباء
حدث اذا نفر البيان فما عليـ   ـك من البيان ، كما علمت ، خباء
فلقد اطاع ظباؤه ، ولطالما   نفرت ، يطاردها البيان ، ظباء
واذا بوافدة الخيال أسيرة   من نفسها ، ما رامها اغراء
خطرت ببرد من بيانك رافل   ورمى خطاها الزهو والخيلاء
نسيت به وطن الخيال فلو هفا   لم يلتبس ما تنتقي وتشاء
ويود لو زحم الحقيقة وانتهى   منه لشعرك منبت وفضاء
قصد به صرفت من جمحاته   واخترت لا شطط ولا غلواء
وارى الحياة يضمنا لمثابة   من فيئها ، بعد الجماح ، لواء
رحماك من دار اذا انتظم الهدى   اهناك فيه للجماح رغاء
حدث اخا شجن وانت حديثه .   الحزن جاحمه وذكرك ماء
قد كان يكسر في قوافيه الاسى   لولا الترفع ان يرام اباء
وبرغم اني لن يطول توقعي   لم يحن ظهري رقة وعياء
هي لهفة ودت بها نفس الحبيـ   ـب لو استطاع لك الفداء ، فداء
قد كنت المحضك الرياء لو انه   ادى حقوقك للبيان رثاء
هيهات تنقع غلة تختار بيـ   ـن شجونها ما تحمل الاصداء

فانا رثاؤك ، لوعة مطروحة ... جسداً تغنيه بك الحوباء
عيناي سابقتا الدموع الى الندى ... والقلب مغدق ذاته معطاء
والليل يسامني النهار مع الجوى ... فتعيد مأتمها بي الآناء
لله يوم قد سألت وقد اجبـ ... ـت ، وفي السؤال وفي الجواب بلاء
— كيف ارتضيت من الانام وانت ما
علموا ، حجا مستوفز وذكاء
قعد الهوان بجالهم وكرهت انّـ ... ـي قد تجوز بزورقي الآلاء . .
بأركت من قلبي منازل دائهم ... ورضيت اني والانام سواء
غيرية ملء « الانا » وطوافح ... للنفس من عطف النهى وغناء
ما كان من هم يرف ببهجتي ... ما غيرهم همي ولا البرحاء
حمل السنين بجربها وشقائها ... قاب تمنته لها العلياء . .
ان آذنت بالحرب قمت لحربها ... وقد انطوت فيّ المنى الشماء
جرت الدموع حنان قلب غامر ... لم يجر دمعي معسف وبلاء
العبقريّ المستطيع على الاذى ... ما العبقري الضارع البكاء

***

حييتها جندية [1] لم تألها ... حقاً وابلى عمرك اللأواء
روح الرجال عليه من احلامهم ... عبء ومن اوطانهم اعباء
ما عابها أن لم تكن عربية ... هي في الطوية والمدى عرباء
مستأنف ، من بعد ، شدة عهدها ... عهداً ، عليه البعث والاحياء
الظامئات [2] الى المعالي قد لحقـ ... ـن الظامئين ، ونبعك الارواء
السافرات ، الصبح من ابلاجه ... منهن لمح ، والدجى احناء
اليعربيات اللواتي ، جلق ... مجنونة ، مذ انجبت ، رعناء
يقعدن منك اهلة وبدورها ... مستقبل ، من غيبه ، وضاء
السائلات ، وانت سح غامر ... طوفانه واللجة الوجناء
ولو ان قصدك ذاهل في تيهه ... وسئلت ، كان لعفوك الابداء
وبقادر ان تنجلي عن معضل ... بالحل لم تعلم به الاطواء

***

عام على الخمسين اوفى حده ... تجف الشهور ، وهن فيه بطاء
الداء موقر خطوها فتخاله ... بعض المنون مشت به الاثناء
سرعان ما الغاشي على رسم الخطى ... متسلل ، آثاره حمراء
عشر ولاء الاربعين تطرّحت ... كلمى يضمد جرحها الاقواء

«١» يوم كان ضابطا في الجيش العثماني .
«٢» يوم كان استاذاً في دار المعلمات

مشت المنون على حفافي نهجها وعلى الصميم تناوب الارزاء
كلاً اذا اخليت من اوجاعها ردحاً اطلت تومىء البأساء
كبـد تداري لليالي ظلمها وتنسُ ، لا تدري الى م بقاء ؟
الزيت شح وما ترى لذبالة ان قد تدار بخفقها الهيجاء
حرب الزمان وحرب قوم همهم ان لا يرى ابد الزمان صفاء
والناس خلفك شانيء او طاعن طعن القفا والوجه منه ولاء
جهلوك جبـاراً يصول وفـاتهم ان الحليم خلاقـه الاغضـاء
ذو مـرة لم ينتفـع ببريهـا قـدر عليه صراطـه وقضاء
والناس حولك السن ، بغضاؤهم للنبل ، ليس لرسمك البغضـاء
لولا اتقيت من الالى علمتهم رجع الجميل من الانام عداء
لا رد للمعروف ، اذ هـو سـابغ ما الروح ، لو سفحت عليه ، جزاء
ان تغض من هفو الكريم ملكته عفواً ، وضر الغادر الامداء
ما تعف عن ذنب له اهلكته قتل اللئيم ، فما له استحياء
هل معجز الاخلاق غير معاده بالسوء ، موهه عليك رياء
ابليس مطبوع الفتون حديثه غاوي البيان صدى له الاصغاء
الاذن منـه وعيَّـة لنجيه والناس ، ان نقمت عليه وعاء
ما تفعل الآداب في غمراتـه وبلجه يستغرق الادباء

* * *

المجدُ ممتنع الحواشي ان مشى فضح الفري الشاني، المشَّاء
حاشاك متَّهماً تُجل علاه عن نيل النميم ، ونفسه العصماء
لو تملك الاخطـاء غير الحال من لهجـاتها ، لم تصمت الاخطـاء
حاشـاك ان احدو علاك مبرئاً لسواك قيل — اذا يزنّ ، براء —
ما المستحيل الاسم ان هي سميت المستحيل وجودهـا العنقاء

* * *

عذراً ابا شكر ، لوت اعنقاقنا عن اربعينك زعزع نكبـاء
في برهـة عصفت يد الايام في ساح الحمى واسودت الغبراء
الارض أظميء للدمـاء حنينها والمجد ، والغد ، والحقوق ظماء
والعبقريـة والبطولة يُمترى بهما ، ويعصف بالمصير مراء
امثولة المتحضرين اذا افتروا جحم الحديد واحدق الاقواء
واليعربي حديده هو قلبه والنار تلك العزة العـذراء

* * *

عشرون من غرر العصور تقاطرت وهمو همو ، والقتل والافنـاء
كتبوا بايديهم حضارة عهدهم بدمائنا ، ما قصَّر الاملاء
القاصفات على معـاهد جلق وعلى الربى والغوطتين رماء

غاراتهم في المطمئنين الألى ... قعدوا ، وضرب القائمين غطاء
الحظ من خدامهم ، فصريعهم ... طفل واهداف الشواظ نساء
والنصر آب مآبهم ، فعدوهم ... عزل ، واسرى الغارة الاشلاء
والوجه سوأتهم « اذا ردا لاذى ... بذلة » دع عنك ما الاقفاء
ان يشجعوا فالنار تشجع عنهمو ... او يجبنوا فهمو هم الجبناء
او يرحموا فالادعياء لرحمة ... او يظلموا فالمعشر الاصلاء
شرعوا الحظوظ على الورى للخانع النعمى ، والمتمرد الضراء
لا عتب ، فالرجعى بمتصلاتها ... هذا الذي قد اورث الآباء
بالامس ثورتهم غثاء حائل ... وقطافها حرية جوفاء
استغفر الرحمن بل محشوّة ... همجية من زورها الاحشاء
الحر في غل الخلاق نزوعه ... مرصودة برقيبه الاهواء

* * *

الشعر غيّره النعيّ فلملمت ... اطرافه ، واستوحش السوداء
قد كنت تترع برّه وتسوقه ... غدقاً اذا ما عقّه الابناء
من كل قافية اذا نمّقتها ... غنق العلى والعقل والابداء
في كل منعطف تأرقت المنى ... فيها واسرف بالربيع رواء
كلم هي الاحياء ملء مضيها ... مرح ينازعه المسير اباء
خفر القوافي ما استحت لضرورة ... لكنما طبع القريض حياء
حاكى العذارى بالبراقع والخطى ... ومشى عذارى دونهن وقاء
ما كان من حسن فتحت ملاءة ... مقصودة غدرت بها الأحناء

* * *

العود عودك للخلود بشاعر ... ايامه ايامه الغراء
وهناك يسمع منذ شيدك ما استوى ... وحيا تترجم لحنه السراء
الشعر ما الاخلاق تفعل قبله ... تجري نعوتاً بعدها الاسماء
وحي تهاداه السنون فخورة ... وحجاً مشى في ظله وعلاء
عضد النبوة في الانام بشيره ... فتطامنت مهج وقر رجاء
قسماً بما تعنى به من آيه ... ما ضاع ، مثقال الهباء ، عناء
الارض واعية على احيانه ... وعلى السماء الوعي منه سماء
عمر ثبات الحق طالع جهاده ... مد ، وعمر الاكثرين هباء
تبقى على الاخلاق آي جهادها ... والكون ، غير الباقيات فناء
ما كان بالخالي لغايك منطق ... والارض حولك والسماء خلاء

* * *

وبرغم انك في المغيض من الثرى ... ولي الشعاع ، ودوّم اللألاء

دمشق ... عبد الحكيم مراد



راشيل

☆

لو سألتني يوم اقلعت بي السفينة لاول مرة تمخر عباب اليم في طريقها الى اوربا ، لاطلب العلم هناك ، لقلت لك انني اسعد انسان بهذا السفر ، الذي تحققت به احلى الاماني التي ظللت انسج خيوطها طيلة ربيع الشباب كله . وهي رؤية تلك البلاد التي سمعت عنها كثيراً وقرأت عنها كثيراً . بلاد الشعلة المقدسة التي يشع نورها على العالم كله فيضيئه . والتي منها تنبعث المدنية ، وفيها يولد العلم وبين ربوعها تنشأ الاخلاق ولهذا كله كانت سعادتي لاتقدر كما قلت لك

ولكن ما ان وطئت قدماي ارض تلك البلاد حتى تبدد الحلم الجميل وتبدلت في عيني تلك الصورة الحلوة الفاتنة التي ظل رسام الامل زمناً يضع خطوطها ويموّج الوانها البراقة . فقد وجدت هناك ان الناس هم الناس في كل زمان ومكان . وان الاخلاق والفضيلة هي الفضيلة في الشرق والغرب معذبة مثخنة الجراح ، يكاد انين توجعهما في الغرب يقطع نياط القلوب ويؤذي النفس الحرة الابية . ومن سوء الحظ — حظي انا — انني ساهمت في تعذيب الفضيلة هناك . وكنت احد الملايين الذين يمرون عليها كل صباح فيصفعونها صفعة او يركلونها ركلة وان تجاوزوا يبصقون في وجهها ان هي قابلتهم عفو المصادفة في الطريق . وهكذا مكثت ثلاث سنوات في «باريس» حتى كل ساعدي ، وخارت قواي . واصبحت اسير في الطريق وانا ابن العشرين — اتوكأ وانا احمل جسدي المنهوك الخائر على ساقين هزيلتين من فرط الاعياء . ولولا انني تركت الشارع الذي كنت اقطن فيه : وهجرت ذلك الحي الذي اتخذت الخطيئة منه مأوى لها وهو حي « مونامارتر » لكنت الآن في عداد الاموات . وذهبت الى مسكن آخر في الشانزيليزيه ذلك الحي الهادىء ، الذي يعيد جماله الى الجسد المتعب حيويته وفتوته

وكان من فضل الله علي ان سكنت في هذا الحي مع اسرة كريمة طيبة عمادها الام العجوز فورتنيه ، والابنة الشابة — راشيل — والابن الحاد المزاج ريمون . ومن هؤلاء الثلاثة كانت هذه الاسرة التي استقبلتني احسن استقبال ، ورحبت بي ايما ترحيب . واعادت الى نفسي سيرتها الاولى من الاشراق والابتسام .

فالام قد استطاعت بفضل عطفها وحنانها

قصة

بقلم امين يوسف غراب

لذي اسبغته علي ان تشعر ني اني ابن البيت . وانني رابع الثلاثة لافرق بيني وبين راشيل او ريمون . وراشيل كانت نظرة واحدة منها تلقيها على كل صباح من عينيها الممتلئتين سحراً وانوثة كافية ان تبعث الحياة في من جديد ولست ادري لماذا كانت جوارحي كلها تتفتح . لتلك النظرة التي تومض من عينيها وتنفذ من بين اهدابها الطويلة الى قلبي فتوقظه وترويه وتجعله يتفتح كما تتفتح زهرة الربيع على انداء الفجر . غير ان الذي كان يؤلمني هي تلك النظرة التي كنت لا اظفر بها الا قليلاً . لان راشيل كانت تشتغل في محل تجاري ، و كانت تقضي فيه معظم اليوم وعندما تعود الى البيت مع الليل تكون اما انها متعبة فتنام ، واما انها تحرص على ارضاء امها التي كانت لاتسمح لهـا ابداً ان تكلم انساناً او يكلمها انسان حتى ولو كنت انا ذلك الانسان ، انا الذي اقطن معهم في البيت . وقد ضايقني هذا ودهشت له ولوجوده في اسرة فرنسية الى حد انني سألت عن سر التمسك بهذه التقاليد العتيقة التي نعمل نحن في الشرق على التحرر منها فقالت لي الام وهي تنظر الي بعينيهـا الضيقتين وتبتسم .

— لان الزهرة اليانعة هي اول زهرة يعبث بها النحل . ومن سوء حظها — اي حظ الام — ان تكون ابنتها زهرة يانعة . وان تكون على هذا الجانب العظيم من الجمال الذي يغري الرجال ويجعلهم يعبثون به دون قصد . فقلت :

— ولكن راشيل على ما لمست . لها من عقلها واخلاقها ما يجعلها تحتفظ بهذا الجمال وقداسته . فربتت الام العجوز الطيبة على كتفي وهي تقول — ثق يابني ان مكان الملائكة ليس في الارض .

ثم انصرفت وعادت لي بعد قليل تقدم لي فنجاناً من الشاي وهي تقول — ومع ذلك فانت اقل الناس خبرة باخلاق ريمون . ان اليوم الذي يعرف فيه ريمون ان صدقاً وان كذباً ، ان راشيل تحادث انساناً ، او يحادثها انسان لهو اليوم الذي تكون هي فيه في القبر ، وهو في السجن . وانا اذرف الدموع على الاثنين .

وكنت قد فرغت من تناول الشاي فذهبت الى مخدعي وفيه لاول مرة قضيت الليل ساهراً افكر في راشيل واضع تلك الخطط لتحطيم هذا الحجاب السميك الذي اسدله ريمون وامه بيني وبين تلك الزهرة المتفتحة اليانعة فحال بيني وبين عطرها العبق المتضوع . ولا انكر انني قد نجحت شيئاً ، وان كان هذا النجاح كلفني الشيء الكثير . فقد رحت دون وعي انفق بغير حساب على نفسي وعلى البيت حتى غدت نفقات هذه الاسرة تكاد تكون من جيبي . وقد ساعدني على هذا ، المال الوفير الذي كان يقدمه علي ابي . وبهـذا فقط استطعت ان ازيل الكلفة بعض الشيء بيني وبين ريمون وبيني وبين الام ايضاً . كما استطعت كذلك ان اجلس احياناً مع راشيل نتجاذب اطراف الحـديث اما على المائدة او ساعة تناول الشاي اذا تصادف وكانت في الدار .

ومن هذا نشأت علاقة حب بيننا . اشهد بان راشيل هي التي اشعلت شرارته الاولى . فقد احبتني راشيل على غير ما كنت انتظر حباً عنيفاً اشهدت عليه دموعها . وراحت هي نفسها التي تعمل على ان نقضي كل اوقات الفراغ معاً في غفلة من ريمون والام العجوز . فكثيراً ما كنت التقي بها في الطريق او في المحل الذي تعمل فيه ، وان كنا في البيت نحاول دائماً اخفاء ذلك جاهدين . وكنت انا اسعد ما اكون بهذا الحب وبالقدر القليل الذي نلتقي فيه ، ولكن راشيل كانت على العكس ، كانت تبكي دائماً . وتتألم دائماً . وتندب حظها العاثر الذي اوقعها بأم لاشغل لها الا التلصص عليها وتتبع كل حركاتها . وفي اخ قاسي القلب شرير الطبع ابسط الامور عنده ان يسفك الدماء . ان رأى شيئاً او سمع وشاية مختلقة .

وهكذا مكثنا اياماً لاشغل لنا الا التفكير في حل يخلصنا من هذا العذاب الذي نعيش فيه ويجعل كلينا للآخر بجسده وقلبه وقد استعرضنا معاً شتى الحلول . ولكن دون الوصول الى حل موفق يرضي راشيل التي الهب الحب قلبها واشعل جوارحها حتى غدت كالهرة المسعورة تريد ان تنشب اظافرها في عيني امها فتفقأهما . وفي عنق شقيقها هذا المتحجر القلب فتطيح برأسه . ولكن كل ذلك كان دون جدوى او حتى امل يبعث الرجاء في قلبها الذي يحترق وجسدي الذي كان يتلوى من الم الظمأ الذي يكاد يقضي عليه . وهكذا ظللنا الى ان حدث ذات صباح ، وكان اليوم يوم احد ذهبت فيه الام الى الكنيسة كعادتها ، وانصرف فيه ريمون مبكراً ليذهب الى ليون في مهمة ويعود مع الليل . وانتهزت راشيل الفرصة واقتحمت علي باب مخدعي وهي في غلالة النوم الرقيقة الملساء . التي زانت صدرها بقرنفلتين جميلتين يعلوها ذلك الروب الاحمر الذى كانت ترتديه دائماً في البيت . والذي كان يعز بمهارة فائقة مواطن الجمال والفتنة في جسدها الفتي الممشوق . الذي نحته انوثة الشباب واسكرته ميعة الصبا . وكنت امام المرآة احلق ذقني فاقبلت علي وطوقت عنقي بذراعيها ودفنت رأسها الصغير الجميل في صدري العاري الذي راحت تبلله بالدموع وهي تقول مرتعشة بصوت

متقطع النبرات — سوف لانلتقي بعد اليوم. سوف لا نلتقي بعد اليوم.

ثم تركتني وذهبت الى السرير منتحبة والقت بجسدها القاء عليه فانطرحت على صفحته في اهمال وتفريط . وانساب الشعر الطويل الناعم على العنق والكتفين، وانشق الروب من بين الصدر عن نجم متألق يغازل في الليل صفحة جدول مترقرق انساب بين الاغصان في قلب الخميلة. ثم استرسل — اي الروب — في مساحب حمراء بلون الشفق، شفت عن مثلها بيضاء بلون الزنابق فكان مزاجهما ناراً ونوراً راحت نظراتي حيالهما تتكسر وتخر صرعى على مذبح الرؤيا . فاندفعت اثرها محموماً ارتعش انا الآخر واستنهضتها وهدأت ثائرتها، وجففت لها باناملي المضطربة دموعها التي انسابت لؤلؤية على صفحة الخد المتورد الشبيه بلون الشفق المتورد المحتجب خلف تلال العقيق، وقد استطعت بعد جهد ان افهم منها كل شيء، وانه لا غنى لها عني . وان ريمون قد بدأ يشك في علاقتنا، لذلك اسر الى امها ليلة الامس انه غير مطمئن الى وجودي معها في البيت، وانه لايستطيع ان يطلب مني ان ابحث لي عن مسكن آخر نظراً لصداقته بي، ولانه لم يبدر مني بعد ما يستحق ذلك. لذلك فاسلم الاشياء ان تذهب راشيل الى عمتها شهران وتعيش عندها حتى ارجع انا الى بلدي فترجع هي الى البيت وما ان قالت لي ذلك حتى اظلمت الدنيا في عيني كما عادت هي ثانية الى البكاء والنحيب . وقضينا زمناً وكلانا لايحس بوجود الآخر من فرط ما الم بقلبينا من محنة . ولكنا بعد ذلك قد استطعنا — وبعد ان قلبنا الامر على جميع الاوضاع — ان نخرج من هذا المأزق . وذلك بفضل حكمة راشيل وعقلها الراجح، ورأيها الذي اقتنعت به ووافقت عليه في الحال . والذي دفعها اليه دفعاً حبها لي ذلك الحب الذي راحت ناره تعتمل في قلبها .

انهـا تحبني، وتحبني لنفسها فحسب، فهي لا تطمع في اكثر من ان تظفر بي وعلى اي وضع من الاوضاع وسواء عندها كان ذلك لايام ام لاعوام . فهي لا تبغي اكثر من مجرد الظفر بي فقط وحسبها ان تتحقق هذه الامنية . وحسب القدر بعد ذلك ان يعبد طريق المستقبل . او يجلله بالسواد . وانا سامكث في باريس ثلاث سنوات الى ان يتم تعليمي . فلماذا لا اتقدم الى هذه الام والى ريمون واخطب منهما راشيل، على ان يتم الزفاف بعد انتهاء دراستي وقبل سفري الى بلادي، اي بعد ثلاث سنوات . وهما بلا شك سيرحبان بهذه الفكرة وسيوافقان عليها في الحال . وفي هذه الحالة نكون قد اعدنا الهدوء الى البيت والراحة الى الكل ونكون، وهذا هو الاهم، قد ظفرنا ببعض . لاننا سنعيش معاً عيشة الازواج الهانئين على مرأى من الجميع ومن بينهم هـذه الام الملحاح الثرثارة، وهذا الاخ الجلف السمج . على ان يكون السر الذي بيننا والذي نشهد عليه الله والدموع هو ان اكون في حل من هذه الخطوبة في اي لحظة سواء بعد ثلاث سنوات ؟ او بعد ثلاثة ايام .

وقد تحقق فعلاً كل الذي تمنته راشيل، فما ان اعلنت خطبتي لراشيل حتى توارى ذلك الحجاب الكثيف الذي كان بيننا، ورحنا نجدف في بحر اللذة الزاخر المضطرب الامواج حتى كلت سواعدنا من فرط السعادة والنشوة واصبحنا لا نفترق ابداً حتى في الليل، فكثيراً ما كانت الام العجوز الطيبة التي فرحت بهذه الخطوبة فرحاً لايقدر، هي التي كانت تهيء لنا المكان والزمان ورحت انا كالمجنون اغترف من ذلك المعين الذي لا ينضب، وراحت راشيل تريني الواناً من الهناء الذي لا تجيد صنعه غير انامل امرأة جميلة .



الاستاذ امين يوسف غراب

غير انـه كان لا بد لي لكي ارضي راشيل واظهر امـام الام وريمون بمظهر الخطيب الحقيقي . كان لا بد لي ان انفق عن سعة وان اغدق

لي البيت كله بغير حساب حتى انني انفقت في قرابة الثلاثة شهور كل ما كان مدخراً . وكل ما كان يرسله الي ابي الطيب، وكان لا يقل عن الالف جنيه ، وبدأت ألح على ابي ، واثقل عليه . وانتحل له شتى الاعذار وكل الحيل حتى لا يشك في امري . فمرة انا مريض وفي المستشفى ، ومرة أقوم برحلة طويلة، ومرة البرد في باريس قارس واحتاج الى ملابس كذا وكذا، ومرة ومرة، الى ان استنزفت كل ما كنت ادخر من انواع الكذب. وقد شعر ابي وهو بعيد بالفارق بين الحياتين . وبدأت تتحقق شكوكه . فمنع عني المال الكثير الذي كان يبعث به الي . وطالب مني ان اعود وليس ما يدعو الى اتمام دراستي ، تلك الدراسة التي ستسبب له الخراب وقد ترك عوضه على الله في تلك الايام التي مضت والاموال التي هدرت. ولست انا — كما قال — اول شرقي ذهب الى باريس ليتعلم ويحمل شهادة يرفع بها رأس بلاده . فعاد ولم يحمل غير خصلة من الشعر الذهبي او منديل ملوث باحمر الشفاه . ولذلك اضطرب حالي ، ورحت استدين من المعارف والاصدقاء . وفجأة رأيتني اقف في نصف الطريق لا انا قادر ان احافظ على مظهري في البيت ، وامام راشيل ولا انا قادر اقناع ابي بوجوب عودة رضاه ، ولا انا ايضاً بقادر على ان اعيش اكثر من هذه الايام في باريس كلها .

ولما ضاقت بي الدنيا وساء حالي ، اعتزمت امراً اخفيته طبعاً عن راشيل . وذهبت الى صديق عزيز وافهمته انني سأرحل الى بلدي في اول باخرة . ورجوته ان ينوب عني في استلام حقائبي وكتبي وملابسي من الدار التي اسكن فيها . ولما سألني عن هذا المسكن وعنوانه وقلت له عليه . قال عفواً ومن غير قصد :

— اتسكن في العمارة التي فيها ريمون وامه ؟

فقلت له بسرعة وقد نظرت الى شفتيه :

— اتعرفها ؟

فقال لي ببساطة وهو يناولني لفافة ويتناول غيرها :

— عرفت ريمون بعد ان تزوج راشيل الجميلة ، وكوّن معها شركة تجارية رأس مالها شرف الزوج ، وجمال الزوجة ...

القاهرة — امين يوسف غراب

للشاعر بيرن

☆

ربي ..

لم تحز ربات الجمال مثلك سحراً
صوتك العذب كالموسيقي ، اصغى اليها البحر المسحور ،
وسكنت الرياح الوسنانة،
كالاحلام .. !
في هدأة الليل البهيم ، والقمر في كبد السماء ، يصعد
بعربته الفضية ، وصدره الخافق ، كالطفل الغرير ،
في سنةمن النوم !
هكذا سجدت لك الارواح والاشباح ،
ايتها المعبودة
شفي آذاننا بصوتك الذبيح
غذي أرواحها بروحك الفياضة ، في صمت وتحنان
كخفض الامواج في فصل الربيع !.

سحر ..

عندما يغفو القمر فوق الامواج
وفراش الليل ... بأضوائه الارجوانية
والاشباح فوق القبور
والحشائش فوق الضفاف
والنجوم تغوص في بحر السماء
والبوم ينعق فوق الخرائب
والاوراق في الاغصان ساكنة فوق التلال
هلاّ التقت روحانا وشفاهنا لنطبع قبلة صامتة ،
كالطبيعة !

صبر ..

من دموعك الرائقة ، استللت حقيقة قاتلة
من قلبك الخاسر ، اعتصرت دماء سوداء
من ابتسامتك المرة ، اختطفت صلاً ارقم
من شفتيك ، تجرعت السم ... !

ترجمة : عبد المنعم العالم — المسمية — فلسطين

الكتابات العربية في قلعة بصرى

☆

جمعها وقدم لها وعلق عليها

صلاح الدين المنجد

رئيس ديوان دائرة الآثار القديمة في سورية

☆

« بصرى مدينة ازلية !»

بهذا نعتها القلقشندي في صبح الاعشى ، ليظهر قدم هذه المدينة العظيمة ذات المجد الغابر والحظ الآفل .

ولقد رنّ اسم بصرى « ذات الحجارة السود » في التاريخ منذ اقدم العصور . فقد كانت تسمى « باصُورا Bassora » في العهد الهليني ، وعندما احتلها «جوداماكابه Judas Macchabée» بعد غزوته « العمونيين Ammonites » اصبحت مدينة هلينية ، وعدت اول مدينة من مدن الاردن ، وهتف باسمها كل فم .

وفي اوائل القرن الاول ، قبل المسيح ، استولى عليها الانباط الذين تقدموا ، بقيادة ملكهم « اريتا الثالث Arétas » فبلغوا دمشق (في حدود ٨٣ ق . م) . وعندما غزا « بومبه Pompée » سورية ، كانت بصرى حد مملكة الانباط . ثم لما وسعت روما امبراطوريتها ، في السنة السادسة بعد المائة ، للمسيح ، بتدخل كورنيلوس بالما Cornélius Palma قائد تراجان ، وقامت المقاطعة الرومانية العربية ، كانت بصترا Bostra ، عاصمة هذه البروفانس وجمّل تراجان هذه المدينة ، وسميت « بصرى تراجان الجديدة » Nova Trajana Bostra ثم جاء الامبراطور سبتسفير Septime Sévère فغمرها بنعمه ، واظهرها باروع مظهر ، ثم اعطاها الامبراطور فيليب العربي لقب Métropole .

ولعبت بصرى دوراً هاماً ، في تاريخ الفن وتاريخ النصرانية . فقد كان فيها مسرح روماني يتسع لعشرة آلاف شخص على اقل تقدير ، وكانت تمثل فيه اعظم المهازل والمآسي المعروفة ذلك العهد ، والمتوارثة عن شعراء يونان . وكانت الى ذلك مقراً ، باديء الامر لأسقفية évêché ثم مقراً لابرشية مطرانية . وكان رؤساؤها الكهان يمارسون سلطة واسعة على جميع الاراضي المحيطة ببصرى .

وفي القرن السادس عمرت فيها كاتدرائية عظيمة . واشتهر من آثارها في هذا العهد ، المسرح الروماني ، الذي سماه العرب « الملعب » ، واسوار المدينة ، والبركة ، والحمامات الرومانية ، وبعض الكنائس (دير بحيرا) والميدان ، والمرج الاخضر .

وعندما قارب الاسلام ان يظهر ، اقترن اسم النبي محمد ، ببصرى . فقد زارها في احدى قدماته متاجراً الى الشام . وتذكر بعض المصادر خبر اجتماعه بالراهب بحيرا ، ويشك بعض العلماء بهذا الخبر ، ويقولون انه بحاجة الى اثبات بنص صحيح قوي .

ثم يظهر اسم بصرى في الحديث ، في غزوة الخندق ، فقد اثر عن الرسول قوله « ثم ضربت الضربة الثالثة فلاحت لي منها قصور بصرى كأنها انياب الكلاب .. »

وهذا الحديث يدلنا على ما كانت عليه قصور بصرى قبل الاسلام .

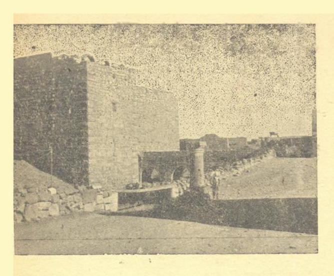
ولما خرج العرب من جزيرتهم ينشرون الاسلام ، مرّوا على بصرى ، فافتتحوها سنة ٦٣٢ م

وخبر افتتاحها مشهور : فقد كان المسلمون حولها عندما قدم عليهم خالد بن الوليد من العراق . فأمروا خالداً في حربها[1] ثم الصقوا بها وحاربوا بطريقها (قائدها) حتى ألجأوه ، وكماة اصحابه اليها . فلما عجز المدافعون عنها ، وتخاذلوا ، صالح

(١) ويقال ان يزيد بن ابي سفيان كان المتقلد لأمر الحرب ، لان ولايتها وامرها كانت اليه ، لانها كانت من دمشق .

اهلها على ان يؤمنوا على دمائهم واموالهم واولادهم، على ان يؤدوا الجزية في قول وعلى ان يؤدوا على كل حالم ديناراً وجريب حنطة على قول آخر.[1]

وفي القرن الثاني للهجرة، يظهر اسم هذه المدينة في المصادر الاسلامية. فقد ذكر ابن عساكر في خبر ابي الهيذام (عامر بن عمارة) احد فرسان العرب وشجعانهم، وزعيم قيس في الفتنة التي وقعت بينهم وبين اليمن بدمشق في ايام الرشيد.. «انه ركب هو وابنه وغلامه، وكانوا في بصرى، وخرجوا على الناس وهم منهزمون حتى انتهوا الى ملعب الروم، وهو حصن في مدينة بصرى. وتسامعت خيل ابي الهيذام، فجاءوا من كل وجه...»[2]



مدخل القلعة من الشرق

وهذا النص يدلنا على ان المسرح الروماني كان يسمى «الملعب» وانهم كانوا يتخذونه حصناً.

وظلت هذه المدينة ذات شأن اقل من شأنها زمن الرومان حتى جاء الايوبيون. ومنذ القرن السادس الهجري، اخذت بصرى تستعيد مكانتها القديمة، واصبحت «دار ملك لبني ايوب»[3]

وظل شأنها يزداد، لانها كانت دار ملك، وكانت مركزاً من مراكز الدفاع ترد هجات الصليبيين عن دمشق وعن الارض المقدسة.

وكان من اثر ذلك ان قامت فيها، في هذه الحقبة، قلعتها العظيمة.

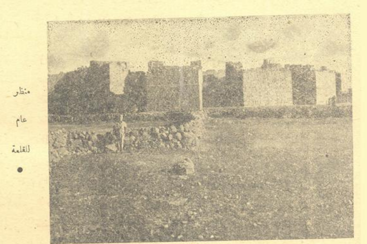
وما كاد الايوبيون، يختفون، حتى عاد شأن بصرى، كما كان قبل الايوبيين. وعندما انتهت الحروب الصليبية، وجاء الاتراك، لم يبق لبصرى أي شأن سوى انها كانت محطة لقوافل الحجاج.

ومن الآثار العربية في هذه المدينة: القلعة، ومسجد الخضر، والمسجد العمري وجامع الدبّاغة، والمقبرة العربية...

واليوم هي قرية، من القرى، مافيها غير هذه الآثار العظام الخالدة التي خلفها الانباط والرومان والعرب.

القلعة وكتاباتها العربية

عني الايوبيون، ومن قبلهم نور الدين،



منظر عام للقلعة

(١) : انظر البلاذري

(٢) : انظر مخطوطة ابن عساكر (تاريخ دمشق) في الظاهرية باسم (عامر).

(٣) : انظر القلقشندي

بالعمران الحربي . واقصد بذلك ، انهم شادوا كثيراً من القلاع والابراج والاسوار ، لرد غارات الفرنجة من الصليبيين ، والدفاع عن مدن العرب والاسلام .

ومن اشهر هذه القلاع قلعة دمشق ، وقلعة حلب ، وقلعة بصرى ، . . وقلعة صلخد . . .

وبصرى لموقعها الجغرافي ، كانت مركزاً هاماً وكان الصليبيون يهاجمونها ، حتى انهم ظهروا فيها مرتين ، المرة الاولى برياسة بودوان الثالث Baudouin عام ١١٤٠ ، والمرة الثانية برياسة بودوان الرابع عام ١١٨٢ م . فكان لا بد من تحصين المدينة وبناء هذه القلعة فيها .

وقد اتخذ الايوبيون الملعب الروماني نواة لهذه القلعة ، فحافظوا على شكله العام ، وبنوا حوله أبراجاً مختلفة .

وسور القلعة جيد ، ما يزال قائماً بأحجاره الضخمة العظيمة

والقلعة محاطة بخندق عميق يزيد عمقه اليوم على ستة امتار وعرضه على ثلاثين متراً . وكان يملأ بالماء ، وكان الماء يصل اليه — من البركة الرومانية ، الواقعة في شرق القلعة

وقد جعل باب القلعة من جهة الشرق .

ويصل الزائر الى الباب ، بعد اجتيازه جسراً يقوم فوق الخندق .

وابراج القلعة بنيت في فترات متقطعة والكتابات التي عليها تبين لنا كيف بنيت ، ومراحل بنائها ونموها اما في داخل القلعة فتجد ابهاء واسعة رطبة ، معقودة ، ودهاليز طويلة مظلمة ، وغرفاً كثيرة متعددة .

ويظهر اليوم من المسرح الروماني ستة صفوف من الدرجات ، أخفضها ارفع من مستوى الارض بمترين وعلى الصف الاعلى ، تبدو بقايا الاعمدة الرشيقة ويقدر محيط دائرة المسرح بـ ٨١ متراً . وبين صفوف المسرح ، ادراج صغار كانت تستخدم للدخول والخروج

وتعنى مديرية الآثار القديمة برفع الاتربة والانقاض لاعادة المسرح على ما كان عليه .

اما الكتابات العربية القديمة ، الموجودة على ابراج القلعة والتي ستقرأها ، فقد جمعتها وحققتها اثناء زيارتي للقلعة في نيسان ١٩٤٥ ، ثم في ايلول سنة ١٩٤٥ عندما كنت مديراً بالوكالة لدائرة

احد الابراج

•

الآثار القديمة ، ثم عدت في كانون الثاني ١٩٤٦ ونظرت فيها نظرة ثالثة .

ومن الفخر لي ان انشر ثلاث كتابات جديدة ، لم تنشر من قبل .!

والاولى من الكتابات ، كانت مطمورة بالاتربة فكشفنا عنها ، ونقلناها وها هي ذي الكتابات .

الكتابه الاولى :

على حجر اسود ، وجد بجانب المدرج الروماني . ٢٥١×٣٨ سم كتبت بخط بعيد عن الاتقان . ارتفاع السطر ٧ سم .

النص

بسم الله الرحمن الرحيم . امر بعمارة هذا الدرج الامير الاسفهسلار (١) عبد الملك شمس



الملعب الروماني

•

(١) الاسفهسلار من القاب ارباب السيوف . وكان في الدولة الفاطمية لقباً على صاحب وظيفة تلي صاحب الباب . ومعناه مقدم العسكر وقد ترك استعماله زمن المماليك . انظر صبح الاعشى ج ٦ ص ٨

الدولة ومجدها ابو منصور ..... بتاريخ جمادي الاولى من سنة احدى وثمانين واربع مائة .

قيمته

هذا اقدم كتابة عربية وجدت في القلعة ، فهي من اواخر القرن الخامس . وهي تدلنا على ان درج القلعة الروماني قد عمر في زمن هذا الاسفهسلار .

وقد كانت دمشق في زمن تاريخ هذه الكتابة بيد السلاجقة مرة ، وبيد الفاطميين مرة . وكانت بصرى تتبعها دائماً .

مصادره

هذا نص جديد ، عثرنا عليه ولم ينشر من قبل .

الكتابة الثانية

كتابة على الزاوية الشرقية للبرج الثالث ، الشمالي الغربي على حجر اسود . بخط ايوبي نسخي .

النص

بسم الله الرحمن الرحيم . عمر هذا البرج المبارك في ايام مولانا الملك العادل العالم المجاهد سيف الدنيا والدين أبو بكر ابن ايوب ، وايام ولده الملك المعظم شرف الدنيا والدين عيسى ادام الله نصرهما .

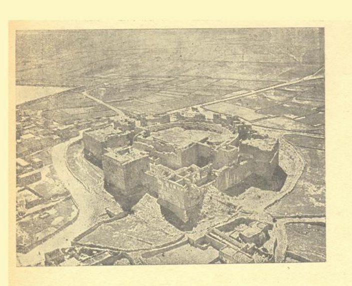
سنقر الطغر لنكتي الوالي يومئذ بمحوسة بصرى . وابتدأ في ابنيته في مستهل سنة تسع وتسعين وخمسماية .

بناية ابراهيم علي بن فهيد

لله الملك الواحد القهار .

قيمته

لعل هذا البرج هو اول برج ، او اقدم برج ، بني زمن الايوبيين كما يدل تاريخه . وكان العادل يومئذ السلطان الاعظم ، وكانت دمشق بيد المعظم . ولذلك ذكر اسم الاب والابن . ومما يزيد



منظر عام لبصرى وتبدو فيه اقلعة تحيط بالملعب الروماني

في شأن النص ، وجود اسم البناء فيه ، وقل ان نجد ذلك في نصوص اخرى .

مصادره

لم ينشر هذا النص من قبل .

الكتابة الثالثة

على البرج الاول للقلعة ، الذي يدخل منه الى الفناء الداخلي . على حجر اسود بارتفاع شاهق ، فوق مرمى النبال المطل على الخندق من الشرق . بخط نسخي ايوبي .

النص

بسم الله الرحمن الرحيم . امر بعمارة هذا البرج والباب مولانا السلطان الملك العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب خليل امير المؤمنين خلد الله ملكه بنظر الامير الاجل الاسفهسلار الكبير ركن الدين منكورس عتيق المولى فلك الدين اخي السلطان عز نصره

في سنة ثمان وستماية

قيمته :

ومن هذا النص نستدل على تاريخ عمارة باب القلعة الاصلي . اما ركن الدين منكورس . فهو من اكابر امراء الايوبيين ومن خيارهم . وكان قليل الكلام كثير الصدقات . وقد بنى المدرسة الركنية بسفح قاسيون . وتربته فيها . ومات سنة ٦٣١ فنقل ودفن بها . وقد ترجم له ابن كثير (١٤١/١٣) ، وبدران (ورقة ٢٣٠) والعلموي

مصادره

انظر :- Col, Von Berchem enveloppe 23 et carnet VI, P. 69 Repertoire X, P, 62.

ورقم الكتابة فيه (٣٦٨٦) .

الكتابة الرابعة :

على البرج الواقع على يسار الداخل الى القلعة . على حجر اسود فوق نافذة البرج الشمالية ، المطلة على باب القلعة بخط نسخي ايوبي .

النص

بسم الله الرحمن الرحيم . امر بعمارة هذا البرج المبارك مولانا الملك العادل سيف

الدنيا والدين قامع الكفرة والمشركين ، مالك الحرمين الشريفين والبيت المقدس والشام ومصر واليمن وخلاط و ... وسلماس

ابو بكر بن ايوب خليل امير المؤمنين بتولي الامير ركن الدين منكورس الملكي العادلي الفلكي . وكان بدء عمارته في جمادي الآخرة سنة تسع ، ونهاية عمارته في سلخ شهر صفر سنة عشر وستماية

مصادره

Coll. Von Berchem, envel. 23, Carnet VI P. 67-69.
Brünnow et Domaszewski III, P. 46.
Repertoire. X, P. 87.

رقم الكتابة ٣٧٢٤

الكتابة الخامسة

على البرج الثاني للقلعة ، الواقع على الجهة الشمالية . وهو اجمل الابراج بناء وتنظيماً . الكتابة على حجر ابيض بخط نسخي ايوبي فوق النافذة المطلة على الخندق . فوقها نجم مثمن وزخارف

النص :

بسم الله الرحمن الرحيم . امر بيناء هذا البرج المبارك مولانا الملك العادل المجاهد المرابط سيف الدنيا والدين ابو بكر بن ايوب ، خليل امير المؤمنين اعز الله انصاره وضاعف ثوابه [١] . بتولي الفقير الى رحمة الله ركن الدين منكورس [٢] ابن عبدالله الفلكي العادلي المعظمي ايده الله بنصره [٣] . بنظر الامير شهاب الدين غازي ابن ايبك الركني اعزه الله . وذلك في شهور سنة اثنتي عشرة وستماية .

المصادر :

Coll. Von Berchem env. 23 et Carnet VI, P. 66.
Répertoire, X, P. 108.

رقم الكتابة ٣٧٥٥

(١) في Rep. اقتداره
(٢) « Rep منكورش
(٣) « « لا توجد هذه الكلمة

الكتابة السادسة

على البرج الغربي الرابع للقلعة . على حجر ابيض جميل . بخط نسخي ايوبي واضح . تحت الكتابة مدماك من الحجر الابيض فيه زخارف هندسية عربية متنوعة جميلة . وفي وسطها كتابة وعلى جانبي الكتابة نجمان مثمنان .

النص :

بسم الله الرحمن الرحيم . امر ببناء هذا البرج المبارك مولانا الملك العادل المجاهد المرابط سيف الدنيا والدين ، سلطان المسلمين ابو بكر بن ايوب خليل امير المؤمنين . بتولي الفقير الى رحمة الله ركن الدين منكورس بن عبد الله الفلكي الملكي العادلي بنظر الامير شهاب الدين غازي بن ايبك الركني اعزه الله وذلك في شهور سنة خمس عشرة وستماية .

قيمته :

هذا آخر نص ، نجده منسوباً للملك العادل . فقد توفي في هذه السنة ٦١٥ هـ ودفن بقلعة دمشق ثم نقل سنة ٦١٨ هـ الى التربة العادلية ، في مقر المجمع العلمي العربي اليوم . وقد كانت مملكته من اقصى بلاد مصر واليمن والشام والجزيرة الى همذان اخذها بعد اخيه صلاح الدين ، سوى حلب فانه اقرها بيد اخيه الظاهر غازي . انظر ابن كثير (١٣ / ٧٩)

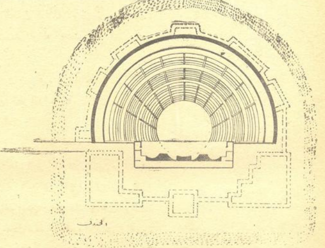
مصادره :

نشره Von Berchem env. 23 et Carnet VI. P. 64. 65
Répertoire, X P. 152.

رقم الكتابة ٣٨١٨

الكتابة السابعة

في زاوية البرج الشمالي ، فوق حجر مستطيل طوله ٥٦٠ × ٩٥ سم بخط نسخي ايوبي .



مخطط يظهر المسرح الروماني وكيف بنيت القلعة حوله

النص :

قطعت هذه الزاوية من الوادي الكبير ، وكان وصولها الى البلد في نصف نهار بنظر شهاب الدين .

قيمته

هذه الزاوية ضخمة جداً . وهي دليل على ان العرب ، لم يأخذوا احجار المدرج الروماني ليبنوا القلعة ، كما يزعم بعض علماء الاثار . بل انهم قطعوا الاحجار من امكنة بعيدة عن القلعة . والوادي الكبير ، هو وادي الزيده . في شمال بصرى . يبعد عنها حوالي ٥ ك م . وشهاب الدين هو الذي مر في الكتابة السابقة

مصادره :

نشره Von Berchem. envel. 23 et Carnet VI, P. 47. Répertoire, X, P. 153.

رقم الكتابة ٣٨١١٩

الكتابة الثامنة

على اسكفة باب الجامع ، المبني في الطبقة الثانية من القلعة . على حجر ابيض بخط نسخي ايوبي نافر جميل .

النص :

بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر .

أمر بعمارة هذا الجـامع المبارك مولانا السلطان الملك الصالح عماد الدين ابو الطاهر [اسمعيل] [1] ابن الملك [العادل] [1] سيف الدين [ابوبكر] [1] بن ايوب خليل امير المؤمنين في ولاية الامير بدر الدين داوود ابن ايدكين الصالحي في سنة عشرين وستماية للهجرة النبوية

لا اله الا الله . محمد رسول الله

مصادره :

نشره Brünnow et Domaszewski

III, P. 214. Répertoire X, P. 192.

رقم الكتابة ٣٨٨٤

الكتابة التاسعة

على البرج الجنوبي للقلعة . بخط نسخي ايوبي جميل . على حجر ابيض . وفي هذا البرج مداميك من الاعمـدة المقطوعة عرضاً .

النص

بسم الله الرحمن الرحيم . عز لمولانا السلطان السيد الاجل الملك الصالح نجم الدنيا والدين ابي المظفر ايوب بن الملك الكامل محمد بن ابي بكر بن ايوب — سلطان الاسلام والمسلمين ، قامع الكفرة والمشركين محيي العدل في العالمين منصف المظلومين [1] من الظالمين شاهر مز [2] ساطان العرب والعجم — صاحب الحرمين الشريفين مالك البدين والبحرين مـلـك الهند والسند واليمن ، ملك صنعاء وزبيد وعـدن سيد ملوك العرب والعجم سلطان المشارق والمغارب الملك الاعظم نجم الدنيا والدين أدام الله ايامه ، ونشر في الخافقين اعلامه ، وضاعف اقتداره ، بمحمـد وآله وحسبنـا الله ونعم الوكيل . [3]

مما عمل في ولاية الامير الاجل شجاع الدين عنبر الصالحي في سنة سبع واربعين وستماية .

قيمته

هذا النص من اغرب نصوص القلعة . وشأنه في الالقاب التي يطلقها على الملك الصالح ايوب . فقد بلغ في هـذه السنة من حيث سعة ملكه وامتداده ، الذروة

(١) في . Rep — المظلومين والظالمين
(٢) « « شهر يار الشام .
(٣) « « لا توجد

وهي سنة وفاته . واذا قرأنا ما كتبـه صاحب الشذرات (٥ / ٢٣٨) من انه دانت له الممالـك . علمنا صحة هـذه الالقاب .

مصادره : Repert. XI, P. 203

الكتابة العاشرة

على البرج الشرقي للقلعة . سطر واحد عـلى حجر ابيض . بخـط نسخي ايوبي .

النص

بسم الله الرحمن الرحيم . امر بعمارة هذا البرج مولانا الملك الناصر العامل العادل المؤيد المظفر المنصور صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين ، قاتل الخوارج والمرتدين منصف المظلومين من الظالمين ابو المحاسن يوسف خليل امير المؤمنين ابن الشهيد الملك العزيز محمد ابن الشهيد الملك الظاهر غازي ابن الشهيد الملك الناصر صلاح الدين بن يوسف بن ايوب منقذ البيت المقدس من ايدي المشركين تغمدهم الله برضوانه . في شهور سنة تسع واربعين وستماية .

في ولاية العبد الفقير الى رحمة الله افتخار الدين ياقوت الملكي الناصري دام عزه .

قيمته

بنى هذا البرج عندما كان هـذا السلطان سلطانا لدمشق سنة ٦٤٩ هـ . (ذيل الروضتين ورقة ٢٠٦ ـ ب)

مصادره

لم يذكره في R . فهونص لم ينشر .

دمشق صلاح الدين المنجد

(١) الزيادة [ ] من .Rep ويلاحظ اليوم ان قد محي اسم السلطان وابيه وجده عمدا

مع فوزي المعلوف على بساط الريح

بقلم عيسى ابرهيم الناعوري

*

في وسط ما يصم الآذان من جعجعة هذا الهذيان الادبي الجديد ، وما حوى من مساخر كمساخر المرافع ، وتوافه كتوافة الصور المشبحة ، يتصاعد من الشرق صوت رخيم هادىء يسكت الى لحظة ، تلك الحناجر الثرثارة المعربدة ، حاملاً الينا بالحانه الشعرية بلاغاً من عالم الشمس ، نفضت عليه الشمس شعاعاً . هو صوت يتراءى لنا جديداً لفرط اعراقه في القدم ، صوت متوحد متعدد ، متصاب روحاني ، مشع منعكس ، تتلاءم فيه المتناقضات باعجوبة خارقة ، ورشاقة شعرية رائعة ، وتلاحم الهي بليغ » .

بهذه النبذة اللطيفة يستهل شاعر الاسبان « فرنسسكو فيلاسباسا » مقدمته الطويلة المبدعة لملحمة شاعرنا الخالد فوزي المعلوف « على بساط الريح » . وفيلاسباسا هذا اراد ان يقدم الى قومه تحفة ادبية غالية ، فلم يجد خيراً من ملحمة فوزي هذه ، يترجمها الى لغتهم ويزفها اليهم في حلة قشيبة ممتازة ، مباهياً معتزاً بهذه الهدية النفيسة

فمن هو فوزي المعلوف هذا ؟ وما هي ملحمته ؟

« فوق حضن الربيع في مثل هذا اليوم ، بعد العشرين من اياره »
« نفضت وردة على الارض عنها كمها ، والدجى صريع احتضاره »

هكذا يؤرخ لنا فوزي نفسه مولده في ملحمته الثانية « شعلة العذاب » التي عاجله الموت قبل ان يتمها . فقد ولد هذا الشاعر الخالد في اليوم الحادي والعشرين من شهر ايار عام ١٨٩٩ في زحلة . وابوه هو العلامة العربي الجليل الشيخ عيسى اسكندر المعلوف ، الذي قدم للادب العربي الحديث في نفسه وفي ابنائه الشعراء اللامعين ، نخبة من اثمن الدرر التي يشرق بها تاجه الوضاء ، فلقد رفعوا لواء العروبة والادب العربي خفاقاً في الوطن وفي المهاجر الاميركي .

لقد ولد شاعرنا فوزي في ميعة الربيع من فصول السنة ، ومات في ميعة الربيع من عمره ، وهو ما يزال يتنسم عبير الثلاثين ، من حياته الفنية بالادب والشعر ، الحافلة بالنبل والجاه ، المملوءة بجلائل الاعمال في سبيل اعلاء شأن الادب العربي ، والامة العربية . وقد تلقى فوزي دروسه الاولى في المدرسة الشرقية في زحلة ، ثم في مدرسة الفرير الكبرى في بيروت . وفي اثناء ذلك اتقن العربية والفرنسية ، — وقد اضاف اليهما البرتوغالية والاسبانية بعد هجرته الى البرازيل — . وقد بدأ يعالج نظم الشعر العربي وهو في الرابعة عشرة من عمره ، فيوفق في بعضه ، ويخفق في البعض الآخر . ولكن ذلك كان على كل حال يبشر بشاعرية خلاقة مبدعة ستتمخض عنها الايام . وكذلك كان يعالج النثر تأليفاً وترجمة ، ولكن لم يطبع شيء من نثره ، كما ان اكثره لم تكمل مادته . وكان له من ابيه العلامة خير مرشد ومعين ، ، فلا غرو ان رأينا نبوغه يتفتح باكراً ويعطي جناه قبل الاوان .

وفي ايلول من عام ١٩٢١ هاجر فوزي الى سان باولو في البرازيل ، حيث انصرف الى الصناعة والتجارة ، مما در عليه الغنى العاجل . ولكن ذلك لم يصرفه عن الشعر والادب ، فظل يشبع ميله اليهما بنظم القصائد الرائعة التي نالت اوسع شهرة بين العرب والافرنج . ثم انشأ المنتدى في سان باولو عام ١٩٢٢ ، ومضى يغذيه بنتاجه الادبي الرائع خطابة وتمثيلاً . ومن رواياته التي مثلت هناك : ابن حامد ، او سقوط غرناطة .

ولا بد لنا من الاشارة الى عناوين بعض كتبه النثرية ، فقد ألف رواية « ابن حامد » المتقدم ذكرها ، و « الحمامة في القفص » التي بدأها وهو في سن السادسة عشرة ، و « صفحات غرام » و « على ضفاف الكوثر » . ولكن لم يتم من هذه المؤلفات كلها

سوى رواية « ابن حامد » .

واخيراً فوجيء فوزي بمرض اضطره الى دخول المستشفى ، حيث اجريت له عملية جراحية لاستئصال الزائدة الدودية . ولبث في المستشفى اربعين يوماً ، ثم شاءت الاقدار القاسية ان ينشب الموت اظافره الشرسة في ذلك الجسم النديان ، وينتزع منه جوهرة حياته الغالية ، يوم الثلاثاء الواقع في السابع من شهر كانون الثاني عام ١٩٣٠ .

اما اخلاقه فقد كانت دائماً مثالاً للنبل الرفيع ، فقد كان حب الخير رائده ، والابتسامة الرضية المشرقة لم تكن تفارق ثغره ، فكان محبوباً مكرماً حيثما وجد . ولا ادل على ذلك من قول الدكتور فيليب حتي عنه :

« قل من الشبان الذين تعرفت بهم في السنين الاخيرة في القارات الخمس من اثر في نفسي اثراً مستحباً ، اشد من الاثر الذي تركه في فوزي المعلوف . . . فهو في كل الحالات هو هو : رضي الاخلاق ، لطيف المعشر ، كبير النفس ، بعيد النظر ، على استعداد دائم للعطف على كل مشروع فيه خير للبلاد السورية التي احبها وانشأته ، عطف عملي لا شفوي فقط . الفتوة العربية في احسن مظاهرها ، كان يمثلها فوزي المعلوف » (ذكرى فوزي المعلوف — ص ٥٩ و ٦٠) .

هذه الاخلاق السامية ، التي استحقت اعجاب الناس ، من عرب وفرنجة ، تجعل من فوزي مثالاً للشباب العربي الذي امتلك نواصي المال ، والجمال ، والشباب ، والجاه ، والعافية ، والشاعرية المبدعة ، واستحق الاجلال والاكرام في كل مكان وطأته قدماه ، كان ابداً منطوياً على نفسه ينتزع من بين حناياها تأملات تقطر بالالم ، وتنضح بالتشاؤم . لقد كان متشائماً الى اقصى حد ، مما طبع اكثر شعره بهذه الصبغة السوداء ، فهو ناقم على الحياة ناقم على المجتمع ، لا يرى فيها بذرة من خير ، ولا مكاناً للسعادة وهذا التشاؤم المر قد رافق حياة الشاعر كلها منذ الصبا ، ووسمها بميسمه . فقد ذكر شقيقه شفيق في كتاب « الذكرى » ان فوزي قد كتب قبل هجرته الى البرازيل على احدى المفكرات ما يلي :

« خلقت في ايار ، في حضن الربيع ، والارض بما فيها زاهية باسمة ، وانا فوقها منقبض النفس ، مقطب الجبين . وما امر العبوسة في محيط الابتسامات ! لذلك اتمنى ان يطرحني الدهر عند موتي في حضن الخريف ، بين اصفرار الاوراق ، وذبول الزهور ، وبكاء السماء . حينذاك قد ابسم عند عتبة الموت ، غير آسف لفراق حياة قطعتها في خريف صامت ذاو ، وتركتها في خريف صامت ذاو » .

وفي عام ١٩٢١ كتب تحت احد رسومه :

« كل هذي الحياة وهم ، وهذا الرسم وهم ، وما انا غير وهم»
« غير ان الرسوم تبقى طويلا وانا امحي بروحي وجسمي »

(الذكرى — ص ٥١)

وكتب تحت رسم آخر كان يبدو فيه عابساً :

«وقفت اجيل الطرف فيما يحيط بي فلم ار حولي ما يش له ثغري »
(فلا تعجبوا ان كنت في الرسم عابساً
فما الذنب ذنبي ، انما الذنب للدهر »

(الذكرى — ص ١١)

وترافقه هذه النغمات السود الى ان يطفح مرجله ، فينظم عصارة آلامه ، وخلاصة تشاؤمه في ملحمة تبدأ بالدمع وتنتهي بالدمع . تلك هي (شعلة العذاب) التي كانت آخر ما درج به قلمه ، ولم يمهله الموت حتى يمسح القلم منها . فقد قضى وخلف النشيد السابع منها مشنوق النغم على حنجرة الابدية الخرساء ، بعد ان خط منه بيتين فقط ويبدأ فوزي هذه الملحمة بالنشيد الاول بقوله تحت عنوان « لغز الوجود » :

برعم الزهر ! ما وجدت لتبقى
بل ليمضي — بك الخريف
هذه حالنا : خلقنا لنشقى
ولتقضي — بنا الحتوف

وفي النشيد الثالث منها يقول :

تحت عنوان : « بين المهد واللحد » :

بسمة الاهل ! يوم نولد ، حولي
عبرات — على المهود
دمعة الاهل ! يوم نلحد ، سيلي
بسمات — على اللحود
ليت شعري بسمتم ? ألاتي م
الى الكون مستهلاً بعبرة ?



فوزي المعلوف

وعلى من بكيتم ؟ أعلى الراحل م عنه ، وزاده منـه حسرة ؟

يولد الطفل للعذاب ، وهذي … سنة الدهر ، وفي الطفل شره

بين اوجاع امه دخل المهد … وبين الاوجاع يدخل قبره

ان من جاء مهده مكرهاً ، يمـ … ضي الى لحده غداً وهو مكره

وهو ان مات ليس يخسر الا … عيش بؤس ، فكيف يرهب خسره

وهكذا يمضي فوزي في الملحمة ، حتى يختمها الموت على البيتين التاليين من النشيد السابع :

مرحباً بالعذاب يلتهم العين … التهاماً ، وينهش القلب نهشا

مشبعاً نهمة الى الدم حرى … ناقعاً غلة الى الدمع عطشى

وفي قصيدة اخرى من قصائده نسمعه يستعجل الموت ويتشوق الى لقائه قائلاً :

والآن يا موت الي اقترب … يا حبذا بالموثق المعتق

معتق نفسي من قيود الاسى … موثق جسمي في المدى الضيق

لم يبق لي في الارض من بغية … ما الارض الا جنة الاحمق

فهو في هذا التشاؤم الذي يبلغ نهاية مداه ، على نقيض تام من شاعر البهجة والحياة : ايليا ابي ماضي الذي يدعو دائماً في شعره الى التمتع بالحياة ، ويريد منا ان نبتسم حتى في احرج الاوقات وان تكون حياتنا كلها املاً مشرقاً ، وينقم على من لا يرون في الحياة الا السواد . غير ان الحياة التي يلتقي فيها الحسن والقبح والشقاء والسعادة ، يلتقي فيها كذلك نفوس لا ترى الا الحسن والسعادة ، ونفوس اخرى لا تستطيع ان ترى الا القبح والشقاء سواء اشاءت ام ابت ، فليس لها في ذلك خيار ، وعبثاً نطالب البلابل ان تسجع لنا بغير الحانها التي وهبها اياها خالق الطبيعة والحياة ، لتعبر بها عن احساسها بالطبيعة والحياة .

ونحن نرى ان هذا التشاؤم المر العنيف عند فوزي المعلوف ، وهو في ميعة العمر ، وفي عنفوان العافية والجمال والفن ، انما مصدره التأمل الطويل ، الذي لا ارادة له فيه ولا اختيار ، في الموت ، وفي آلام الحياة . وكل منا لا بد ان تكون قد مرت به فترات من مثل هذا التأمل القسري ، ولكنه كان في حياة فوزي متصلاً مستمراً ، مما ادى الى صبغ شعره بهذه الصورة التي نراها .

هذا هو شاعرنا الملهم الخالد فوزي المعلوف ، صاحب « على بساط الريح » ، الذي غنى على الارض لحن السماء ، ثم طار عن وكره ولما يتم نموه ، الى حيث يلتقي بروحه التي ركب — في ملحمته هذه — بساط الريح ، وهزىء بالانواء والعواصف ، والنسور والنجوم ، في سبيل البحث عنها ومعانقتها ، الى حيث الحرية الخالدة التي اجهد فكره وخياله بحثاً عنها في عالم الجسد الفاني ، فلم يجدها ، فراح ينشدها في عالم الروح ، وهو ما يزال في الثلاثين من عمره .

كان فوزي — يرحمه الله — شاعراً صادق الشعور ، لا يكتب الا ما يلهمه هذا الشعور ، الصادق ، ولا يصور الا ما يعتلج في نفسه النبيلة ، وقلبه الكبير من نوازع سامية . وقد فطن الى جمال الصدق في الشعر ، فراح يخاطب قلمه في النشيد الرابع عشر من ملحمته الملهمة بقوله :

يا يراعي ! رافقت كل حياتي … فارو عني ما كان حقاً وصدقا

فماذا يكون الشعر ان لم يكن هذا ؟ ومن يكون الشاعر الحق ان لم يكن ذاك الذي لا يريد الا الحق والصدق ؟

***

اما ملحمته « على بساط الريح » فهي قصيدة تتألف من اربعة عشر نشيداً ، تبلغ في مجموعها مئتين وثمانية عشر بيتاً . فهي بذلك ليست ملحمة بالمعنى المفهوم من الملاحم الشعرية التي عرفها الادباء والمثقفون في « الياذة » هوميروس و « اوذيسته » ، وفي « انياذة » فرجيل ، ولا التي عرفوها في اغنية دانتي الالهية ، ولا في فردوس ملتون المفقود ، ولكنها شيء اقرب ما يكون الى المطولات الشعرية ، والمعلقات ، وان تكن مغايرة كل المغايرة في جوهرها لما نعرف الى اليوم من ملاحم ومطولات ومعلقات شعرية ، فهي كما قال فيها فرنسيسكو فيلاسباسا : « مجموعة قصائد عميقة المغزى ، مرتبطة بفكرة واحدة ، وشعور واحد ، يغلب فيها التأمل على الفلسفة ، فترى روح الشاعر الحالمة متنبهة لاجمل مظاهر الطبيعة ، واعمق العواطف الحية . كل ذلك في شعر غنائي جلي » . (مقدمة « على بساط الريح »)

هي نفثات شاعر يحس بانه مقيد بجسمه في الارض ، ولكن روحه تسرح حرة في الفضاء الطلق الرحيب ، بين الارواح العلوية الخالدة البعيدة عما يعرفه العالم الارضي من اطماع ، وحزازات ، وشرور ، وشهوات ، وادران ، شاعر يحزنه ما يراه في دنياه من هذه الشرور ، التي يخالق بعضها العلم ، وبعضها الآخر الجهل ، ويسبب بعضها الغرور ، وبعضها الآخر الطمع ، وبعضها الرياء ، ويولد بعضها الذكاء ، وبعضها البلادة . فهو لذلك يريد ان ينفي كل هذا من دنياه لتسعد ، وليهنأ فيها ابناؤها .

هي نفثات شاعر يتلهف شوقاً الى الانطلاق من عبودية الارض العمياء ، لمعانقة روحه المحلقة في الفضاء . كل ذلك يصوره بشعر رائع صادر عن طبع شعري اصيل ، وسليقة فنية

مطبوعة ، ومملكة شعرية فائقة . ففي كل من اناشيده فكرة ، او مجموعة فكر رائعة ، يجلوها الشاعر الشاب نابضة بالحياة وبالفن ، نابضة بالصدق وبالحقيقة ، دافقة بالجمال وبالسحر ، عامرة بالوصف الشعري البارع ، والرشاقة في التعبير عن خطرات هذه النفس الشابة الشاعرة ، التي تتألم — اكثر من المها لنفسها — لألم العالم الذي يعيش فيه ، فتنشد له الامن والراحة والطمأنينة .

لقد كان فوزي شاعراً موهوباً ، متفتح النفس والاحساس ، مطبوعاً على رقة الفن والشعور ، بعيد الخيال في صدق ولطف . ولقد اعتمدت ملحمته على الخيال كثيراً ، ولكنه خيال جميل صادق ، ونحن لا نطالب من الشعر اكثر من ان يكون في خياله عنصرا الصدق والجمال ، اذا اجتمع اليهما طلاوة في التعبير ، ورقة في الوصف .

والآن لم يبق لنا الا ان ننساق مع الشاعر خطوة خطوة مستعرضين هذه الصور الروائع ، والاحاسيس الالطاف المشرقات التي يعرضها علينا في اناشيده الاربعة عشر من هذه الملحمة الخالدة التي اراد فوزي في بادىء الامر ان يجعلها قصيدة عادية ذات نشيد واحد ، ولكن ابت شاعريته الا ان تجعل منها ملحمة طويلة . فقد ذكر شقيقه شفيق في (ص ٣٢) من كتاب « ذكرى فوزي المعلوف » ما يلي : نظم فوزي قصيدته « على بساط الريح » في ايام قلائل ، وحسب اولاً ان تكون قصيدة عادية ذات قافية واحدة ، فبدأها بالقطعة اللامية التي وصف بها الطيارة . . . فما بلغ فيها البيت الذي يقول فيه :

« حلقي ، حلقي والقي على الافلاك   رعباً وروعة وفضولا »
« واشهدي في الطيور كراً وفراً   واسمي في النجوم قالاً وقيلا »

حتى تفتقت له تصورات جديدة ، وتخيل له ما تقوله الطيور وتهمس به النجوم ، فنوع قوافي القصيدة ، واندفع يعالج الموضوع الجديد الطارىء ، الذي جاء واسطة عقد الملحمة وجوهرة تاجها . وكان يقول : انه لم ينظم في حياته قصيدة بالسهولة التي نظم بها هذه ، فقد كانت الافكار تجيئه عفواً ، واللفظ ينقاد له صاغراً »

يبدأ شاعرنا الملهم ملحمته في النشيد الاول بوصف ما يسميه « مملكة الشاعر » — مملكة روحه التي يبحث عنها — في الفضاء فيصف هذه المملكة بشعر نقرأه مبهوتين ، وننساق مع خيالاته على اجنحة لطاف خفاف ، تحلق بنا الى السموات العلى ، فيتمنى كل منا لو يكون ذلك الشاعر صاحب تلك المملكة الخيالية الرائعة ، التي لا يعرف صاحبها معنى الدسائس والاطماع والغرور والرذائل :

في عباب الفضاء فوق غيومه   فوق نسره — ونجمته
حيث بث الهوى بثغر نسيمه   كل عطره — ورقته
موطن الشاعر المحلق منذ البدء   لكن بروحه لا بجسمه
انزلته فيه عروس قوافيه   بعيداً عن الوجود بظلمه
ملك قبة السماء له عرش   وقاب الاثير مسرح حكمه
ضارب في الفضاء : موكبه النور   واتباعه عرائس حلمه
تاجه هالة ينضد في فضـ   ـتها الافق بدره قرب نجمه
والدجى طيلسانه فاح كافور   دراريه فوق عنبر فحمه
والثريا في كفه صولجان   دره لمه الصباح بكمه
ملك طائر بغير جناحين   بأمر الخيال يقضي وباسمه

ثم يمضي شاعرنا في ابداعه فيصف في النشيد الثاني « روح الشعراء » ، فيناجيها مناجاة كلها لطف ورقة ، ويصفها وصفاً كله جمال وبراعة :

انت يا روحهم من النور ذرات   أضاءت في الكون في عاليه
انت من عالم بعيد عن الارض   يفيض الجلال عن جانبيه
هو فردوسك السحيق فلا الاثم   ولا الشر يبلغان . اليه
وفق الشعر فيه يستنزل الوحي   بياناً يجثو الخلود لديه
ما احمرار الاصيل غير لهيب   شع من قلبه على شفتيه
ماندى الفجر غير لؤلؤ دمع   رشته الازهار من محجريه
وبريق النجوم غير شظايا   كأس حب تحطمت في يديه

انه لبيان متدفق « يجثو الخلود لديه » في هذه الابيات التي يناغمها رنين الاسى ، الذي يبعثه صدق احساس الشاعر ، ورقته ، وعطفه على بني الحياة ، الذين يدرجون في الالم من المهد الى اللحد .

واما النشيد الثالث فانه يذخر بالصدق ، وبالجمال في تقرير الحقيقة المرة الواقعة ، والتعبير الرائع عن خلجات النفس المرهفة الحساسة . وهو وصف لعبودية الحياة لا نظن احداً بلغ فيه مدى فوزي من الجودة والرقة . يقول الشاعر :

انا عبد الحياة والموت ، امشي   مكرهاً من مهودها لقبوره
عبد ما ضمت الشرائع من جور   يخط القوي كل سطوره
بيراع : دم الضعيف له حبر   ونوح المظلوم وقع صريره
انا عبد القضاء ، تملأ نفسي   رهبة من بشيره ونذيره
عبد عصر من التمدن ، تلهو   ضلة عن لبابه بقشوره
عبد مالي ، احظى به بعد جهد   فاذا بي انوء من ثقل نيره
عبد اسمي ، ذوبت روحي وجسمي   طمعاً في خلوده ونشوره
عبد حبي ، انزلته في فؤادي   فكوى اضلعي بنار سعيره
انا في قبضة العبودية العمياء   اعمى مسير بغروره

ألا انه الشعر الرفيع هو الذي يجعلنا نفكر ، بل نغرق في التفكير ، بعد قراءته ، فهذه الملحمة التي زين بها فوزي المعلوف

الخزانة العربية ، هي قطعة من هذا الشعر السامي ، وهذا النشيد خاصة من هذه الملحمة ، لهو من اروع الشعر الذي يحملنا على التفكير العميق ، لان كلاً منا يرى فيه صورة نفسه وصورة احاسيسه . ومن منا ليس ذلك العبد الذي يصفه شاعرنا بهذا الاسلوب المتدفق الرشيق ؟ من منا ليس عبداً لحبه ، ينزله في فؤاده ، فتكتوي اضلعه بناره ، وعبداً لاسمه ، يذوب جسمه وروحه في سبيل خلوده ؟ ومن منا لا يشعر بأنه في قبضة العبودية العمياء . ولكنه مسير بغروره ؟ ان شاعرنا لم يصف نفسه وحدها بهذا النشيد ، وانما وصف معها ابناء الحياة بأسرهم ، فهم مثله عبيد عميان ، منقادون على رغمهم لعميان مثلهم ، ولكن الفرق بينه وبينهم — وما ابعده من فرق ! — انه يشعر بهذه العبودية ؛ ويتألم لها ، وانهم — او وان اكثرهم — لا يشعرون .

الى هنا ولم نعرف بعد شيئاً عن «بساط الريح » لق . رافقنا الشاعر في ثلاثة اناشيد من ملحمته ، ولكننا لم نتجاوز بعد دور التمهيد لهذه الرحلة الغريبة التي يقوم بها شاعرنا بحثاً عن روحه التي تسرح حرة في اجواز الفضاء ، هذه الروح التي يتلهف الى معانقتها ويغامر — في الخيال ؛ طبعاً — مغامرة لم يسبقه الى مثلها شاعر ، سوى صاحب بياتريس — دانتي الليجيري — الذي نزل في الخيال الى الجحيم ، ثم ذهب الى المطهر ، ثم صعد الى السماء ، باحثاً عن صاحبته ، ووصف في اغنيته الآلهية ما شاهده في تلك الرحلة الغريبة من عجائب واهوال . فكلا هذين الشاعرين رحل باحثاً عن شيء عزيز عليه ، حبيب اليه : دانتي عن حبيبته بياتريس ، وفوزي عن روحه التي يشعر بأنه يعيش على الارض بدونها .

والنشيد الرابع من الملحمة يرينا كيف بدأت هذه الرحلة التي رحلها شاعرنا في الحلم . وفي هذا النشيد وصف للطائرة لم يسبق شاعرنا الملهم اليه ، وصف فيه جمال وفيه خيال بعيد موهوب :

صعد الطرف في الاثير ، تجدني قاطعاً في الاثير ميلاً فميلا
خبباً تارةً ، وطوراً وئيداً صعداً مرة وأخرى نزولا
فوق طيارة على صهوات الريح راحت تروّض المستحيلا
هي طير من الجماد ، كأنَّ الجن في صدرها تحثُّ خيولا
حمحمت تضرب الرياح بنعليها فشقت الى السماء سبيلا
ثم مدت الى النجوم جناحين ، وجرت على السحاب ذيولا
غرقت في الاصيل حيناً ، وعامت بعد حين تعلو قليلاً قليلا
ترتدي من دخانها بردة الليل وتلقي عن منكبيها الاصيلا
وعليها من الشرار نجوم عقدت حول رأسها إكليلا
حلقي ، حلقي ، والقي على الافلاك رعباً وروعة وفضولا
واشهدي في الطيور كراً وفراً واسمعي في النجوم قالاً وقيلا

ثم يمضي الشاعر فيصف في النشيد الخامس رحلته بين الطيور ، وتهامس هذه الطيور فيما بينها عن هذا «الطائر الغريب الذي يبث اللهيب بركان صدره ، والذي جاء يستعمر الفضاء بأسره ، ويقذفه بالرعب والروعة والفضول ، والذي . . . «كرة الارض عن مطامعه ضاقت . . فحطت هنا مطامح فكره» . . . واذ ينتهي الشاعر في هذا النشيد من تصوير فزع الطيور وتهامسها وتساؤلها ، يمضي في النشيد السادس يصف نفسه بشعر يغلب عليه الالم واليأس فيقول للنسور عن نفسه وهو يهدىء روعها »

هو في ميعة الشباب ولو حدقت فيه الفيت شيخاً هزيلا
فهو لا يعرف التبسم الا عندما يستعيد حلماً جميلا

وانها الصورة من اعمق صور الالم واعنفها ان لا يعرف الانسان التبسم الا عندما يستعيد من اطواء النسيان حلماً جميلاً ابتلعه حوت الماضي ، وغيبته الايام في حنايا ظلماتها .

وفي النشيد السابع يأخذ الشاعر في تصوير فزع الطيور . وفيه يصف الانسان ، على لسان احدى النجوم فيقول :

هو مخلوق عالم اسمه الارض يغطي الشقاء كل بطاحه
عاثم ما شعاره غير ان الحق للقوة التي في سلاحه
لاتخافي منه ، وخليه يعلو فقريباً يهوي صريع كفاحه

واود ان اقف عند هذا البيت الاخير قليلاً لاسجل ان فيه نبوءة شاعر — وفي الشعراء ارواح الانبياء احياناً — قد حققتها الايام فليس من شك ان الانسان الذي اخترع الطيارة ، قد جعل هذا الاختراع من اكبر ادوات التدمير واهمها في هذه الحرب الهمجية الاخيرة ، التي عادت بالبشرية عشرات القرون الى الوراء . وبذلك نستطيع ان نقول ان الانسان قد هوى صريع كفاحه حقاً ، فتحققت بذلك نبوءة شاعر «على بساط الريح »

ونسير مع الشاعر في رحلته الشعرية الشائقة ، فنسمعه في النشيد الثامن يبث النجوم الفزعة شكواه ، كما بثها الطيور في نشيد سابق فنرى في هذا البيت اشواق تلك النفس يئست من وجود الخير في الارض فراحت تنشده في السماء . ولعمري فكأني بالشاعر في هذا النشيد ، وفي النشيد العاشر الذي سنراه بعد قليل ، يتنبأ باحتضار عوده في ميعة الشباب وزهرته ، فيحاول ان يترك في الناس من بعده صوراً صوادق لاحاسيسه واشواقه وآلامه واوهامه . فيقول في هذا النشيد الثامن .

عشت بين المنى يراود نفسي خلب من طيوفها وعقام
أقتفيها وفي يديَّ فؤادي ثمَّ الوي ، وفي يديَّ حطام
ايّ عود حملته للتلاهي لم تقطع اوتاره الايام ؟

أي كأس قربته من شفاهي لم يحل حنظلًا عليه المدام ؟
ضاع عمري سعياً وراء رسوم خططتها في الشاطيء الاقدام

وانا اكاد اجزم بان هذا العمق في الاحساس هو الذي جنى على الشاعر ، وعجل بالقضاء عليه قبل الاوان . كما انني اعتقد وانا اسوق رأيي في شاعرية فوزي – انه ليس في وسع شاعر ان يأتي بأبدع واكثر مما جاء به فوزي في هذه الملحمة ، وفي اخواتها من اناشيده الروائع . فاذا كان الشعر الحق تصويراً صادقاً لنفس الشاعر ونوازعه ، وتصويراً للمجتمع بآلامه وافراحه ، باوهامه وحقائقه ، فقد صور فوزي كل ذلك في مطولاته حتى لاوفى على الغاية . وقد قلت «مطولاته» لان لفوزي عدا « على بساط الريح» اربعة دواوين – كما ذكر فيلاسباسا في مقدمته لهذه الملحمة – وهي« شعلة العذاب» و«تأوهات الروح » و« من قلب السماء » ، و«اغاني الاندلس » ، وان كنا لم نعرف منها سوى اثنتين ، هما « شعلة العذاب» و«على بساط الريح» .

ونتابع السير مع شاعرنا الموهوب في رحلته على بساط الريح ، فنرى الارواح في نشيده التاسع « يتأبن عليه جماعات ملأن الجو الفسيح دوياً لأنهن « شممن في السديم ريح انس » . وتراه في حيرة اذ يسمع اصواتاً ويعي اشياء ، ولكنه لايرى شيئاً وتستمع وصفه لهذه الاشباح التي تساوره ، والتي تحوم ثم تهوي ترف بين يديه . وهو يستمع الى ماتوشوشه هذه الارواح عنه فيمضي يتلوه علينا في النشيد العاشر ، الذي جعل الشاعر عنوانه «حفنة التراب» والذي يقول فيه عن الانسان :

ليته عاد للثرى مثلما جاء نقياً بنفسه واهابه
جاء والحسن والرواء رفيقاه وثوب العفاف كل ثيابه
وتولى بقوده الاثم والداء الى القبر في ربيع شبابه
هو يحيا للشر ، فالشر يحيا ابداً حيث حل شؤم ركابه

وشاعرنا يرى في هذا النشيد ان . . .

«.. كل النبات الذي في الارض من زهره الى لبلابه »
« ليس الا عصير اجساد من ماتوا فزانوا الثرى باجمل ما به »

فهو في هذا يتفق مع ابي العلاء القائل :

خفف الوطء ، ما اظن اديم الارض الا من هذه الاجساد

والواقع ان بين المعري وفوزي المعلوف تجاوباً عظيماً في نظرتها الى الحياة ، وفي آرائها في الموت والخلود ، فلقد انطوى المعري على نفسه ، يتأمل الدنيا ، من خلال عماه ، فبدا له ان شرها يطغى على خيرها ، فعافها وهام بجربها . واطال فوزي التأمل فيها ببصره وبصيرته معاً ، فلم ينتج له تأمله الا كرهها ومقتها ، فضم قلمه الى قلم شيخ المعرة في محاربة الحياة والناس

وفي النشيد الحادي عشر نستمع الى تتمة الوشوشة التي تبدأ في النشيد السابق . فهنا في هذا النشيد تتكلم روح اخرى ، اوعلى الاصح يتابع الشاعر بلسان نجمة اخرى نقمته على الانسان ذاك المخلوق الشرير ، الذي سخر سائر قواه للشر ، وللهدم والتدمير ، والذي . . .

«اعطي النطق والحجى ميزة تفرقه في الوجود عن حيوانه »
« فاذا بالاذى وليد حجاه واذا بالشرور نبت لسانه »
«ليته لم يكن ذكياً ! فكل الويل في الكون من نهى انسانه»

وفي النشيد الثاني عشر تظهر روح الشاعر « فتطوقه بكل عطف » ، وتقف بين الارواح الصاخبة الثائرة ، لتدفع عنه ما ترميه به هذه الارواح من جارح القول ، « ولتخلصه من غضب العالم الفخور بشمسه» وتعتذر عنه بقولها :

«هو بالرغم عنه من عالم الارض تربا بشكل ابناء جنسه »
«يسكن الارض مرغماً وهو لو خير ما اختار غير ظلمة رمسه »

وفي النشيد الثالث عشر ، يصف وقفته مع روحه بقلب السماء « يتمليان من القبل » ويغرقان في فرحة اللقاء ، وهما يجلسان على بساط من السحب « يفوح الغرام من جنباته » . فينتقلان الى الفضاء من البحران والغيبوبة ، « ويملآن من لفح قبلاتهما الجو » . وكل ذلك يصفه بشعر بليغ ، وخيال بعيد متدفق ، تطول به متعة القاريء ، « ويسمو » بروحه الى اجواء شعرية ساحرة .

وما تمر بضع دقائق على فرحة الشاعر بلقاء روحه ، وكأن هذه الدقائق من عمر الخلود في هذا الوقت الشعري الساحر ،



تمثال فوزي المعلوف المنصوب في زحلة

العناصر النفسية في القومية العربية

بقلم ابو مدين الشافعي

ماجستير في علم النفس من جامعة فؤاد الاول

وسكرتير تحرير مجلة علم النفس

☆

اركان القومية العربية

لا يكفي(*) ان نعرف العناصر النفسية للقومية العربية، بل ينبغي ان نستأني الى ايجاد الظروف الملائمة لتأييد هذه العناصر والمحافظة عليها . فالعناصر النفسية ، للقومية ككل العناصر النفسية ، لا تكون لها ثمرة الا اذا وجدت الظرف الملائم لحيويتها . وحيوية العناصر النفسية تتطلب جواً وبيئة ، فلا بد من ان يوجد الجسم لتكون هناك نفس تقوم به وتحيا فيه ، وقد سبق وقارنا في اول البحث بين الشخصية والقومية على اعتبار ان القومية شخصية الامة ، فلا تكون الامة سليمة الا اذا كانت شخصيتها واحدة ، وكل ميل الى تعدد الشخصية في الامة ، يؤدي الى التفكك ، الى الضعف . فتعدد الشخصية في الفرد احد اسباب اضطراب السلوك ، كذلك الامة يمرج امرها وتضيع اتجاهاتها بتعدد الشخصية فيها . ووحدة شخصية الامة تقوم على اركان ثلاثة : اولاً : الوحدة السياسية . ثانياً : الوحدة الجغرافية . ثالثاً : الوحدة الثقافية ... وليس من السهل تحقيق هذه الوحدات ، اذ كل منها يستدعي بذل مجهود جبار تقوم به جماعات تعمل بكل اخلاص ، لتصل الى بعث الجماهير ، الى الاقتناع ببعض الافكار والقيام ببعض الاعمال وصولاً الى الهدف المنشود .

ونحن اذا كنا نحرص على ان تكون للقومية العربية اركان ثابتة ، فليس بدافع من التعصب العرقي ومحاولة الانفصال عن القوميات الاخرى ، والاعتزال عنها اعتزالاً تاماً في السياسة والارض والثقافة ، فمن الداخل في حدود ملاحظتنا ان الانسانية في ازمتها الاخيرة ، شعرت بالحاجة الماسة الى التضامن والتعاون والتفاهم ، وان التعصب القومي اصبح آفة يجب مقاومتها .

(*) راجع الاديب عدد حزيران وتموز ١٩٤٦

حتى زاره وقد عاد الى اليقظة ، والى دنيا الواقع ، وذلك في النشيد الرابع عشر — وقد زال الحلم الجميل الذي سعد بحلاوته لحظات طوالاً ، وزالت معه حلاوته . فيلتفت الشاعر حوله ، فلا يرى سوى يراعه . فيهتف مناجياً هذا السمير الامين ، وهذا الرفيق المخلص :

يا يراعي ! ما زلت خير صديق لي منذ امتزجت بي ، وستبقى
باسماً من سعادتي حين اهنا باكياً من تعاستي حين اشقى
كم حبيب سلا ، وعهدك باق فهو اوفى من كل عهد وابقى
يا يراعي ! رافقت كل حياتي فارو عني ما كان حقاً وصدقا
انا لم القَ مثل صمتك صمتاً حولته عرائس الشعر نطقا .

هذه هي ملحمة « على بساط الريح » للشاعر اللبناني الخالد المرحوم فوزي المعلوف . وهي ، في يقيني ، درة ساطعة في تاج الشعر العربي الحديث ، لو اجتمع في ادبنا عدد من مثلها لكان قبلة عشاق الادب العالي . وهذا هو فوزي المعلوف ، الذي قال فيه الشاعر الاسباني فيلاسباسا : « ان فوزي المعلوف كأنبياء التوراة ، علق ربابته على غصن صفصافة لتعزف على هوى الريح ، ناطقة بما في لغة الطبيعة من نبرات خفية تهمس بها الالوهة » . وقال فيه ايضاً : « انه في هذا العصر من اصدق ممثلي روح امته الخالدة ، ومن اوفى ابناء الشرق حماسة واندفاعاً » . والشاعر الذي قال عن نفسه في ملحمته « شعلة العذاب » ، فصدق في قوله :

« انني شاعر بروحي فوق الموت تمشي بكل حبي وبغضي »
« ايه يا موت ! لن تمس خلودي ، فاقض ما شئت ، لست وحدك تقضي »
« فانا خالد بشعري على رغم زمان عن قيمة الشعر يغضي »

القدس عيسى ابرهيم الناعوري

خصوصاً حين تحاول قومية، ان تطغى على غيرها عاملة على تحطيم اركان القوميات الاخرى. على انه لا بأس مع ذلك ان تحاول احدى القوميات الكبرى الموجودة في العالم ان تتحد داخلياً كي تستطيع مد يدها الى القوميات الاخرى بالمساعدة الفعالة. وكما ان الافراد لا يستطيعون التعويل على الشخص الذي ليس له عزم ولا يمكنه ان يبذل اي مجهود كما لا يملك اية شخصية كذلك الامم لا تستطيع الواحدة منها ان تعتمد على اخرى ضعيفة مفككة

لقد وجدت بعض الامم التي حاولت دائماً ان تعيش عالة على غيرها. ولم تستطع في يوم من الايام ان تحافظ على كيانها، فلم يكن لها اي ركن من اركان القومية، إن في الوحدة السياسية اوالجغرافية او الثقافية. لا شك ان القارىء الكريم يستطيع ان يجد بسهولة الامثلة الحية لهذه الامم، التي نجد افرادها قد اندسوا في كل الامم واختلفت لغاتهم وتنوعت ميولهم السياسية، وتوزعوا في الارض بين اجزائها، يبحثون عن المال ويكافحون بكل الوسائل المادية والمعنوية، ليحققوا اغراضاً انانية كأنهم فطروا على حب الذات فلا تلقى عندهم تضحية ولا ايماناً ولا صراحة.

وقد حاول بعض هذه الامم ان يخلق كياناً قومياً ونظر الى ناحية واحدة من نواحي هذا الكيان القومي فاتجه الى الناحية المادية وترك الناحية الروحية. فلم تبدأ الصهيونية بالتفكير على القيام باعمال تنفع بها الغير، ولم تطالب الصهيونية من اتباعها ان يفكروا في انفسهم كي يكملوا النقص.

وليس من قبيل الصدفة، ان يتفق الناس في مختلف اطوار التاريخ على مقاومة التعصب القومي اليهودي الذي لا يقوم على اساس. فقد دعتهم كل الظروف السياسية والجغرافية والثقافية على ان يندمجوا في مختلف شعوب العالم، ولكن اليهود استمروا في محاولة اقامة البناء القومي على غير اركان — وفهمت الصهيونية هذه النقطة وحاولت ان تحقق الظروف لظهور اركان القومية اليهودية، ولكن محاولتها هذه لا محالة فاشلة فقد ظهرت بوادر الفشل لدى اول لحظة من التفكير في المشروع الصهيوني، الذي يحاول ان يخلق اركان قومية يهودية بالمال لا بالمبادىء النفسية. واستندت الصهيونية على الاساس التاريخي وهي لا تؤمن به، وادعت ان فلسطين المكان الجغرافي الوحيد الذي يحق للصهيونية ان تجعله احد اركان الامة الصهيونية، وتحاول الصهيونية ان تحيي اللغة العربية لتكون اساس الركن الثالث وهو الثقافة.

ونرى ان الصهيونية لم تأت بشيء جديد بل هي تستعمل الاسلوب الذي استعمله اليهود وهم اشتات متفرقون كلما حاولوا الوصول الى غرض ما من أغراضهم. فالصهيونية تحاول بمكابرة ان تعيش على غيرها فقد انكرت وجود القومية العربية، ونسيت ان فلسطين لا تصلح ان تكون ارضاً مستقلة خاضعة لدولة مستقلة كيفما كان لونها، لان فلسطين قطعة لا تنفصل عن الارض العربية، وان شعبها يتصل اتصالاً وثيقاً بشعب العروبة.

والوسائل الجديدة التي تستعملها الصهيونية لتخلق امة جديدة، تصطدم كلها بوسائل راسخة تستند عليها القومية العربية التي تربط فلسطين وتشدها ببناء متين لا يمكن فصل جزء منه مهما كان ضئيلاً دون تحريك كل البناء — وقد كانت ازمات فلسطين كأزمات الجزائر، المحك الذي اثبت لنا حياة الامة العربية ومتانة اركانها —. ونحن معشر العرب في حاجة اكيدة الى العناية بالاسس التي تقوم عليها حياة الامة العربية، فعلينا ان نعمل لنضمن الوحدة الجغرافية والوحدة الثقافية والوحدة السياسية

الوحدة الجغرافية

مختار البلاد العربية بموقعها الجغرافي، وقد اصبح لهذا الموقع قيمة كبرى لها اهميتها في العالم — لعبت البلاد العربية من قديم الزمن دوراً هاماً في الميادين التجارية والحربية. لقد كانت جزيرة العرب البرزخ بين جنوب آسية وغرب اوربا، وكان العرب ناقلي البضائع من الجنوب الى الشمال ومن الشرق الى الغرب. وكان التجار ينقلون الآثار الروحية كما كانوا ينقلون المنتوجات المادية، وتركت التيارات الثقافية والصناعية والسياسية آثاراً خالدة في نفوس العرب.

فرض الوضع الجغرافي على العرب ان يكونوا تجاراً ولكن تجارتهم كانت تحمل طابعاً خاصاً — وظهر ذلك في صلاتهم بالتجار الايطاليين في جنوا، فكان العرب يتركون آثارهم في كل مكان واتصلت حضارتهم بآثارها الى كل البلاد المجاورة.

وجاء الاسلام فضم الى الآثار المادية للحضارة العربية آثاراً روحية، ووجد الجو مهيأ فامتد في كل اتجاه من البلاد العربية الاولى، وافاض على كل البلاد المجاورة الصبغة العربية، فتكونت

جغرافية جديدة للبلاد العربية .

واستطاع العرب بمبادئهم الروحية ادماج الاقطار المجاورة وما اتصل بها ، الى حد بعيد في القومية العربية ، وغدت البلاد المحيطة بالجزيرة وطناً عربياً مترابط الاجزاء ، يتكلم اهله اللغة العربية ويشعرون شعوراً عربياً سائغاً لا نحس معه باي فرق او تفاوت في مرتبة هذا الشعور مهما اضطربنا في جنبات البلاد العربية او بلاد العربية كما سماها الدكتور محمود عزمي ..

ولكننا نشعر بمحاولات ترمي الى تقسيم الارض العربية وابعاد الصلة بينها بخلق حدود موهومة ما انزل الله بها من سلطان ونجد الاطماع الاستعمارية تحاول ان تقنع العالم بان قطعاً من الارض العربية يمكنها ان تصير غير عربية . وسمحت لنفسها بعض الدول المشهورة بالعلم والثقافة ان تعتبر اللغة العربية اجنبية في جزء من اجزاء البلاد العربية ، ولم تدرك هذه الدولة ان اللغة العربية لا يمكن ان تموت في ارض نشأتها وكونها ، كما ان القوانين العلمية الاجتماعية تفيد في هذا الموضوع فوائد واضحة لا يصح لمتعلم ان يجهلها ، فهناك مناطق لغوية تخضع حدودها للحدود الجغرافية لا السياسية ، فتعدد اللغات في سويسرة وبلجيكا مثل يبين لنا بوضوح ان المناطق اللغوية لا تخضع للنفوذ السياسي ، ولا يمكن باي حال من الاحوال التصرف في حياة لغة بطريقة تعسفية غير مسايرة للاتجاه الطبيعي الذي وقف عليه علماء الاجتماع اللغوي

تميل كل اللغات الكبرى الى التجزؤ والتفرع ، فتظهر دائماً اللهجات المختلفة في وسط اللغة الكبرى ، وقد تتباعد هذه اللهجات وتصير فيما بعد لغات مستقلة . وتلعب العوامل الجغرافية في هذا الموضوع دوراً هاماً . فلو تأملنا اللغة اللاتينية وانقسامها الى فروع كثيرة ، لوجدنا الانقسام متفقاً مع الوضع الجغرافي للبلاد التي تسمى اليوم بالبلاد اللاتينية ، ولست ادري ان كان للعنصر دخل في هذا التقسيم ، فكل الذي لاحظناه ان الانفكاك اللغوي تبعه انفكاك في الشعور القومي ، وكانت اول خطوة خطتها فرنسا نحو الانفصال باستعمال اللغة الفرنسية التي كانت تعتبر عامية في ذلك الوقت بالنسبة للاتينية لغة الكتابة يومذاك ، ولعبت جبال البرانس والألب ونهر الرين دوراً هاماً في عزل اللغة الفرنسية عن اللغات الاخرى .

علينا معشر العرب ان نطمئن من الناحية الجغرافية ، فانها الى حد بعيد في صالح وحدتنا . فهي كفيلة بحفظ وحدتنا اللغوية مهما كانت العوامل الآخذة باللغة العربية الى الانقسام في لهجات خاصة . ونحن لا نتعصب للغة العربية الفصحى ونحرص على ابقائها لغة الكتابة ، الا لانها بحكم وظيفتها تؤدي واجب الجمع بين اللهجات وتقريب شقتها ، مهما حاولت العوامل الطبيعية ابعاد بعضها عن بعض ولست في حاجة الى اظهار قيمة الوحدة اللغوية القائمة على وحدة جغرافية ، فبا الاولى تكمل الثانية فالتجاور من غير تفاهم باللسان والمنطق لا يوجد فرصة التضامن والترابط ، بل قد يؤدي الى طريقة اخرى للتفاهم وهي لغة المدفع ومحاولة التغلب والتسلط ، كما كان دائماً حال المانيا وحال فرنسا من اقدم عصور التاريخ الى الآن . ونلاحظ ان بعض الدول تحاول ان تعطي العامل اللغة اهمية كبرى ، من ادماج شعوب اخرى من جنسها وصبغها بصبغة قوميتها ، فعادت اللغة وسيلة فعالة من وسائل الاستعمار وبطبيعة الحال لا يمكن للغة فقيرة ان تحتل عقول الناس وتتحكم في عواطفهم ومشاربهم لان تكون غنية بثقافتها لاسيما وقد اصبح للثقافة شأن كبير بانتشار الطباعة والراديو ، ففي الوقت الذي فقدت فرنسا فيه كل شيء ، لم تجد امامها غير الثقافة .

الوحدة الثقافية

على الرغم من كل ما استهدف له العرب استطاعوا ان يحفظوا تراثهم الثقافي من الضياع فهيئوا من مساجدهم ودورهم الخاصة مدارس وتكونت فيئات قليلة في كل ناحية من البلاد العربية تدرس اللغة العربية وادبها وكان للجامعات الثلاث القرويين والزيتونة والازهر ، اثر كبير في انقاذ الثقافة العربية — او على الاقل — اصولها من الضياع .

وقد استطاع الشيخ محمد عبده ان يبعث روحاً جديدة : في اللغة العربية وان يوجهها توجيهاً حياً ، وكانت اللغة العربية الحية سلاح الشيخ محمد عبده ، في حملاته الاصلاحية وهجومه على الركود الفكري الذي كان يدعو الى اليأس ، ففك اللغة العربية من قيود السجع ونشأ عن ذلك انطلاق في الفكر ليجري في مجراه الطبيعي . ولم تبق اللغة قالباً جامداً يعبر عن افكار قليلة متوارثة ، واخطر فقر يمكن لامة ان تصاب به هو الفقر في التفكير ، فاستطاع الشيخ محمد عبده ان يكافح ضد هذا الفقر وحاول ان يرجع للعقل العربي جرأته التي قد تصل به الى التضحية مستندة الى الايمان والصراحة .

وقامت اول خطوة خطاها في اصلاح الفكر على افهام الناس معنى القضاء والقدر ، وان لم يكن لصرخات الشيخ محمد صدى مباشر في مصر ، فان هذا الصدى — كما هو الشأن في

كل صدى – تردد بعيداً عن مصر . فان زيارة الشيخ محمد عبده لبعض الاقطار العربية، وضعت الاساس للوحدة الثقافية بين الاقطار العربية . سرت فكرة الاصلاح في كل الاقطار العربية سير البرق ، وقامت جمعيات منظمة تنشر دعوة الشيخ محمد عبده ، وتناضل ضد عدوين عدو داخلي تشبث بالافكار العتيقة حباً بالقديم . وعدو خارجي : شعر بخطر هذه الدعوة على الاستعمار . كل عمل يبدأ بالافكار ، وكان الاستعمار مطمئناً ما دام الفكر راكداً لايدرك تسخير الايدي الخفية لشؤونه ، فكانت القبائل تتطاحن ولا تدري سبب هذا التطاحن ، وكانت الاسر تضحي بمستقبل ابنائها في سبيل الخرافات والاوهام ، وهي تعتقد ذلك ايماناً واخلاصاً للدين ، وكانت اسواقنا تخلو من بضائع لترويج فيها الاخرى ونحن نعتقد ان ذلك من قبيل الصدفة .

ان التجاوب الثقافي بين البلاد العربية ، اصبح مساعداً قوياً على تتبع بعض المظاهر التي كان يخفى علينا تكرارها في مختلف البلاد العربية . واصبحنا بفضل التفاهم الصريح نعلم ان مصيرنا الثقافي ، كان موزعاً بين اتجاهين غريبين عن البلاد العربية ، وقد دخلت بعد ذلك اتجاهات جديدة ، تنازع العقل العربي واصبحت كل دولة تحاول ان تضع ثقافة ، وكل منها متأكدة من ان هذه العقول قابلة لاية ثقافة اجنبية لخلوها من الثقافة القومية . اننا نلاحظ نقصاً في ثقافتنا ، فعلينا ان نعتبر خدمتها في سبيل الكمال كفاحاً خطيراً لا يقل عن الكفاح في الدفاع عن شبر من اراضينا العربية .

واننا نلاحظ الميل للعلوم الوضعية ، وهذه العلوم تقدم لنا في لغات اجنبية ، فلا بد من بدء حركة قوية ترمي الى تجنيد الشباب الجامعي للترجمة ، وقد قامت تركيا بهذا العمل وتقوم به الصهيونية اليوم – فلنجعل هدفنا الوصول الى انشاء دائرة معارف عربية فالحرب الثقافية بين الامم الاخرى وصلت الى اشدها قبل هذه الحرب المادية . ولا يرد علينا فشل المشروعات الموجهة لمحاربة الامية ، فنحن نعتقد ان محاولة تعلم الناس القراءة والكتابة وحدها ، دون ان يقصد تثقيفهم ، كما لاحظ ذلك استاذنا احمد امين بك ، عبث او استهزاء ، فكأننا نقدم للجائع الذي نزيد اطعامه اناء فارغاً . فلا بد من تعميم مشروع الجامعات الشعبية في البلاد العربية ، وتوحيد برامجها واهدافها .

وفي يدنا الوسيلة الكبرى لتحقيق الوحدة القومية الى اقصى حد ، وهي التربية في المدارس الابتدائية والثانوية . ويجب ان نجابه واقعاً مراً وهو قلة الوقت وقلة المال وكل منها من شأنه ان يجعل مشروع التعليم ويجعل التربية غير خاضعة للغاية التي نريدها ونرمي اليها – ونحن ايضاً في حاجة الى رجال في مختلف نواحي النشاط الحي، وان تكوينهم الصحيح يتطلب عناية طويلة تبدأ بالطفولة وهذه العناية، تقتضي المبالغ الطائلة وليست في ايدينا .

ولكن امامنا طريقاً واحداً ، وهو طريق قصير وبالتالي لا يكلفنا الكثير من الاموال . مثله في الطريقة الاولى نحن نلاحظ اننا في دور نشكو فيه من قلة رجال التعليم امام الاندفاع القوي على الدارس الذي عجزت الحكومات العربية عن الاحتياط له بايجاد الاماكن الكافية لكل من يرغب في التعليم – فتقول طائفة بتحديد التعليم ليمكننا ان نخرج رجالاً أكفياء ، وتقول طائفة اخرى بعدم التحديد الذي يحرم العناصر الفقيرة من التعليم وهي العناصر التي تخرج رجال العمل القادرين على الكفاح والانتاج . وكل طائفة على حق ، فاضطربت اتجاهات التعليم وأدى اضطرابها الى تأخر التربية وابعدها عن رسالتها القومية .

وان علم النفس يقدم لنا حلا افادت منه بعض الشعوب التي وجدت نفسها امام نفس المشكلة ، فيمكننا بعدد قليل من الرجال خلق عدد كبير من القادة والعلماء المبرزين . يقدم لنا علم النفس وسيلة لخلق النبوغ خلقاً في نفوس الشباب بطريقة الاختبار والتوجيه والايحاء ، يمكننا ان نبحث عن الموهوبين من الشباب الذين ساعدتهم الظروف على جمع كمية كبيرة من النشاط النفسي يمكن استغلاله في اتجاه معين . فنستطيع ان نعرف الناحية التي يمكن لكل شاب ان ينبغ فيها ، وانماء ذلك الاستعداد بالايحاء ، فيمكن ان تكون في كل سنة مجموعات ، يصل عددها الى المئة في كل قطر من الاقطار العربية . فان بدأنا بدفعة اولى مكونة من شباب في سن الرابعة عشرة ، فاننا نتمكن بعد سنوات من ايجاد اول نخبة من القادة في كل ميدان ولا اخشى ان اقول ان هذا النظام في التربية قد اتبع في مدرسة الزعماء في المانية وبريطانيا ، فأتى بثمرات عرف العالم آثارها بقطع النظر عن القيمة الاخلاقية لهذه الآثار .

ويمكننا ان نغتنم فرصة هذا التكوين الضروري للرجال البارزين في مستقبل الامة العربية ، لنعمل على توحيد اتجاهاتهم القومية ، والحرص على بعث الشعور القومي العربي باكمل صوره وبذلك نستطيع ان نضمن التوحيد من كل الاتجاهات ومنها الاتجاه السياسي

وعن الوحدة السياسية فلا يمكننا ان ندلي باي رأي فيها لا خوفاً ولا حفظاً لسر ، اذ حفظ السر هو الآخر ضرب من الخوف وكل الذي يمكن ان نقوله هو ما يجب ان يوليه العرب من ثقة مطلقة في جامعة الدول العربية . ولا بد من ان نؤيدها بقوى شعبية ليمكنها ان تعمل ، ويجب ان نحترم جهودهم وان نترك لهم مجالهم يكافحون فيه باخلاصهم العربي . ونأمل ان النجاح الذي يبدو لنا قوياً يتحقق في القريب العاجل ، بضم كل الاقطار العربية تحت سياسة واحدة تحكم العرب بقانون الطبيعة والفطرة التي فطر الله الناس عليها لترشدهم الى الاعمال النافعة والافكار الناضجة والشعور السليم

خلاصة :

بدعي

ج . سلومون G. Salomon ان الفكرة المثاليّة للقومية تتمثل من غير شك في فرنسا منذ الثورة . فالنظام السياسي وحده يجعل من الشعب امة . . . ليس الامر مبدأ سياسياً ولكنه اشتراك في الدم المراق . وذكر « ي . زانجفل » في مبدأ القوميات ان الموت يفرض الطابع الذي يجعل الامة مقدسة . وهذه هي الفكرة التي نحاول ان ننقدها بذكر العناصر النفسية للقومية العربية . وقد اثبتت التجارب التاريخية ان هذا الاتجاه في فهم الامة واسسها ، قد ادى الى الاضطراب في كل الميادين — وفكرة الاشتراك في اراقة الدم اصبحت في محاولة جعلها اساساً للقومية باطلة ، فوجدنا اما تشترك في الهزيمة واما اخرى تشترك في النصر ، ولكن ذلك الاشتراك لم يؤد بهم الى ادنى تفاهم ، فما بالك في تكوين امة لها قومية واحدة — وان التاريخ نفسه يشهد ان اشتراك الجزائر في حروب فرنسا الكبرى لم يجعل الفرنسيين يعطون لذلك اية قيمة في التفرقة بين الجزائري والفرنسي حتى في اتفه الامور ، فمثل التساوي امام اية وظيفة كما ان الثقة لم تتكون بين الطرفين ، وظل كل شعب ينظر الى الآخر نظرة عدائية تقوم على كره متوارث .

اذن لا بد من العدول عن الاساس الاحمر ، ولابد من البحث عن اساس آخر يهدي الانسانية الى السلم والطمأنينة فليس هناك امامنا الا الاساس النفسي الذي يتمثل في المبادىء السامية ، لقد تغلبت الانسانية على صعوبات مادية كثيرة ، فعليها ان تتغلب على الصعوبات الانسانية — واعتقد ان التضحية وهي ترمي الى استعمال القوة المادية في الغالب ، يمكن تحويلها الى استعمال القوة النفسية مثل الصبر والانتظار ، فلو ان ازمة سنة ١٩٣٩ حلت بتضحية اخرى غير تضحية الدم ، لكنا وفرنا على الانسانية كثيراً من المشاق وكثيراً من المود التي تقاتل الطرفان من اجلها .

تقوم القومية العربية على مبادىء ، ويجب العناية بهذه المبادىء بالمحافظة على تراثنا الروحي ، فيجب ان يكون لنا أدب يمثلنا ، وثقافة تغذينا . واما الاغراض المادية الاقتصادية ، فاننا نطالب بحقنا فيها بالطريقة التي كان يجب على الناس ان يطلبوها بهـا . وقد حان الوقت الذى بدأت تفهم فيه الانسانية اخطاءها .

وقد اصاب الدكتور محمود عزمي اذ وصف الازمة العالمية بانها ازمة نفسية ، فيجب ان تحـل بالطرق النفسية . فأهم شيء يجب ان نفهمه هو ان اساس القوميات ، يجب ان يكون شعوراً قائماً على الاشتراك في تقدير مبادىء واحدة ، ولكن من مبادئنا الا نقاتل الناس لنعيش عيشة الرفاهية ، وانما نقاتل من اراد ان يقتلنا .

لا شك انه كان في القومية العربية كما هو الشأن في كل القوميات وكل الاشخاص ، نقائص وعيوب كانت السبب في ارتكاب اخطاء ، تتفاوت في الاهمية حسب نتائجها في الداخل والخارج . ولكننا نستطيع بحكم الوضع الذي عانته القومية ان نحكم انها لم تكن تستعمل نفس السلاح الذي كانت القوميات الاخرى تحاربنا به . والآن بعد ان وصل الى النهاية القاسية سلاحهم المـادي ، فانهم رجعوا الى الناحية النفسية .

ومما يؤسف له ان العروبة تعتقد ان الوقت قد حان للتعويل على القوة المادية ، واصبحنا نسمع الناس يحلمون بالطائرات والدبابات ، وهناك ما يقضي على أمة باسرها في بضع لحظات اننا في مطلع فجر تاريخ جديد بعد ما دار التاريخ دورته ، وعاد الى المستوى الروحي ، فهل نحن قادرون على التساوي معهم والاحتفاظ بكياننا القومي ، لنعمل لنا ولغيرنا ؟ . ذلك ما سنراه في المستقبل القريب .

القاهرة

ابو مدين الشافعي



بقلم ابرهيم حبيب طنوس

مهداة الى سهيل ادريس كاتب قصة « اشواق . . »

لم يدر عامر لماذا تلح أشباح ماضيه الحاحها عليه منذ الغداة . فسني فتوته تمر مثل رؤى قريبة الصلة بيومه في استعراض منتظم عاماً عاماً وشهراً شهراً، بل انه ليرجع بذكرياته الي ايام كان فيها يرعى بقرته « عيوقة »، وكيف كان يعود، عند الغروب، والمقود في كفه، فيدخل فناء الدار من تلك البوابة الكبيرة، المظللة باغصان البيلسان الزاهرة، والعابقة بطيبها، فيتوقل بمشيته امام الفتاة جميلة، ابنة جاره، كأنه يقود جيشاً مظفراً، او كأنه يسحب كوكباً من كواكب السماء! وهناك عند مقربة دانية، جميلة بشعرها الكستنائي المتموج المبعثر على منكبيها وعينيها السوداويتين الراقصتين ابداً بالمرح والحبور، وثوبها العنابي ذي الاطراف المطوية اقلاماً وحروفاً، فهي اما تكون على السطح تسقي زهور « المضعف » و« خلق المحبوب » بابريقها الاحمر ذي الخطوط السوداء والعنق الطويل واما ترتب الفراش في الخيمة الصيفية التي يدعونها « التخت » وتتقاطر الافكار فتزدحم بالاشواق والحنين الى تلك المناظر الفاتنة، فلا تمضي الا بضع ثوان حتي تظهر له صورة « امين » بعباءته الحمراء المعلمة بخطوط بيض وبزناره العريض وكفيته المقصبة، يعلف ثيرانه قريباً من منزل ابي داود، والد جميلة، وكيف كان يشغل ثيرانه باستراق النظرات الى تلك الواقفة على السطح، امام الخيمة، او ازاء المزهريات المنضدة امامها . فيحس بشيء يزعجه، بشيء غريب ينغص عليه العيش، يتمنى لو كان أباً لجميلة او اخاً، ليتقدم من « امين » ويسأله بجرأة وعتو : لم تنظر الى الفتاة، ايها الوقح؟ ». ولكن صاحبنا لا يلبث ان يثوب الى رشده فيجد ان لجاره امين « حقاً » كما له منه، وان ظل في همس نفسه ان عهده برعايتها اقدم فهو احق بفراغ قلبها ووارف هواها . ثم تمر بخاطره ايام الاعياد واجتماع الفتيان على « البيادر » ليلعبوا فوق العشب النامي بشتى الالعاب، والبنات العابثات بالارض وبالسماء، يقفن فوق هضبة لترين الشبان المتبارين . وكيف كانت عزيمته، هو، تشتد وقلبه ينبض؛ وحواسه تستيقظ حين يرى جميلة بين الواقفات . وحتى الآن، لم تزل تلك الشريطة الوردية الملفوفة حول خصلة من شعر رأسها تصفق في اضلاعه وتخفق في فؤاده، فتجري في نفسه ذكرى لكل تصفيقة، واحساسة مؤنسة مع كل خفقة وهزة . . فيتأوه، متململاً؛ ويفتح عينيه ليقف على حقيقة امره وواقعه، فيرى الشرطي الراكب وراءه، يلوّح ببندقيته في وجه المسوقين الى صفوف النار، في جبهة السويس ليردوا الفرنجة عنها، ولينصروا الدولة العلية . ويخفق قلبه الآن لا ارتعاشاً بذكرى جميلة وماضيه، بل خوفاً من سلاح ذلك المستبد، الذي لا يعرف مخافة الله ولا الاخوة الانسانية . ومان يلحظه يميل عنه ليستعجل آخرين حتي تظهر له بلاهة تصرف بعض الناس مع ابناء جنسهم . فينكمش على ذاته امام صاف الشرطي، ويعود الى ماضيه لائذاً ملتجئاً، محتمياً من واقع ممقوت، كله شكوك ومخاوف واحزان . فيتناسى الشرطي، ومركز الحكومة، وحلبا والسويس والسلطان والكفار، وتنقلب تلك الدنيا الضيقة الكالحة الى دنيا فسيحة ضاحكة، تمرح فيها جميلة وتمشي، قافزة في ازقة « الدير » وعلي سطوح منازلها . فترتاح نفس عامر الى رؤيتها ومناجاتها بلغة خفية منسولة من خيوط الاحاسيس ونسيج العواطف النابضة .

☆

وكان يوم، لم يعد لعامر فيه صبر على حب قد ملك قلبه واستولى على شعوره ولم يقدر، بعد، ان يكبته ويربت على رغباته كما كان يفعل، بذهابه الى الحقل يحرث او يحصد او يروي . فاقترب، ذات ساعة، من حائط جيرانه، وهم ان يردد سؤالاً الى الفتاة، ولكن لسانه

تلعثم ، فارتج عليه . وتسأله جميلة قصده فيجيب انه يريد شربة ماء ، فتقدم له « الشفشق » فيشرب على غير صدى ، ويتحامل بشربه جهد طاقته ، ويشكر ويرجع . ثم يذكر كيف اسر الى والده قبل وفاته بعام ، بميله الي ابنة الجار ، وذهاب والديه وثلاثة او اربعة من ذوي قرابته الى منزل ابي داود ، وكيف طلبوا له جميلة عروساً ، فرضي والداها ، وتلقى هو البشارة بقلب يكاد ينقطع عن النبض ، غبطة وابتهاجاً !

***

مر على زواج عامر ثلاث سنوات ، كانت جميلة ، اثناءها ، محور تصوراته وقبلة امانيه . فكلما قدم من الحقل ، كانت تخف الى البوابة وتتساق جزع البياسانة، فتقطف ضمة من زهرها المستدير المنمنم ، وتقدمها الى بعلها التعب ، ثم تأخذ الثيران والحمار الى مزاودها وتقدم لها العلف . ولكن ذلك العيش اللاذ ، وا ستمتاع البسيط من حياة قروية بسيطة ، لم يطل امده ، فاذا بحرب ١٩١٤ تهز اكثر بلدان العالم وبينها مقاطعة عكار . واذا بالخيالة من اتراك ، ومن مواطنين شر من الاتراك لا يدعون لقرية الدير ساعة راحة او ليلة طمأنينة . فكل يوم يطرق أولئك منازل القرويين ، وفي جيوبهم قائمات باسماء المدعوين لنصرة السلطان والمحافظة على امبراطوريته ، وفي اجوافهم جوع لاصفر رنان او ابيض وهاج . .

واستفاق عامر على لغط الناس ، في مركز حلبا ، من موقوفين ومن مسلوكين ومن اهل واقارب جاءوا يودعون اولادهم واقاربهم ، وحلوقهم جافة حزناً واسى على حياة هي ما اشقى ما تكون حياة !

وكانت التعبئة قائمة في دمشق على قدم وساق ، والهجانة مع الفرسان والمشاة يتسابقون ، مزدحمين ، الى الخروج من حياة جافة يهوم عليها الشك ، ويقطب في جبينها وجه المستقبل المخيف .

ووصلت الحملة الى « بئر سبع » وتلاطمت الجمال والخيل والرجال حول مائه الشحيح ، وتقدم من حمل روحه على كفه ، والشجاع من اغتصب جرعة من السائل النادر ، واما الجبان المتردد ، فايمت عطشاً قبل ان يموت برصاص البريطانيين .

لم يستهو شيء من ذلك نفس عامر ولا حركه صدى او هزته فكرة برزخ السويس ، بل كان منكمشاً على ذاتبه وهو يمسك مقود بعير ذاكره يوم كان يقود « عيوقة » راجعاً الى المنزل ، وجميلة فوق السطح تروّي زهورها ، او تحوك بصنارتها جوارب صوف تقي والديها برد الشتاء القادم . فتهتاجه ذكرى عذبة وادعة ، تنتقل به الى ظل البيلسانة ، وتدنيه من زندي امرأته البضّين ، الملتفين حول عنقه او شفتيها الطريتين النابضتين بدم الشباب العارم وحرارة الحب المتسعرة . . . فيكاد ينسى الصحراء وشظفها وتجهمها لولا لفحة من حر تمر على وجهه وهبات من نار الشمس الفائرة تشوي جسمه وتسدر بها عيناه . فيسائل نفسه : « ترى ، لماذا جئت واي شيء ادافع عنه ؟ » ولكن لايحير جواباً ، فيأخذ بهمهمة خافتة ويقرر في عزم : « سارجع اليها ، سارجع اليها ! »

في تلك الليلة الساكنة ، وبينا القطر من الابل المحملة تتهادى فوق الرمال ،





☆

والمشاة حواليها كاشباح متزايلة او كذبائح تقدم في هيكل الموت ، قرابين جشع وطمع وعدوان . . تنحى عامر الى وهدة ، وتمدد فيها ، وما ان غابت القوافل عن نظره حتى رجع متجهاً نحو بئر سبع ، واذا هو بفار آخر ، فتعارفا واتفقا على العودة الى منزليهما مهما كلف الرجوع .

وكرت ايام وتلتها ليال . . . وعامر مع رفيقه ، يعرجان عن الطرق والمسالك ليسيرا في الفيافي والحزون ، تخفياً عن عيون « الجندرمة » وعن عيون « ابناء الحلال » وليس عندهما من علم الطريق سوى مطالع الشمس . لقد تداعت مفاصل حذائي عامر وصفقت خرق اثوابه للرياح الهوج ، فاشتد قرُّ جبال عكار ، حتى أدمى الارجل والاصابع ، فمات رفيقه قروراً ودفنه عامر في منحدر يقابل بنات نعش ! ثم راح يتحامل على نفسه وعلى القدر ، سالكاً مفاوز تلك القمم ، رائداً وهادها وانجادها ورسم جميلة وابنيه الصغيرين يقوده ويقويه بينما معدته تهيب به : ولو الى القليل من العشب والجذور ، فيخنق تلك الاصوات الضاجة باجترار اطراف الاعشاب وافانين الشجر اللدن ، وتتصل عنده لذة السير في لذة الامل الخافق بلقاء الحبيبة وتقبيل ولديه حارس ونعيمة . ولما قرب من الهرمل ، اعترضه « ابناء الحلال » وكان صفر نقود ورديم اثواب ، فظنوه قد بلع الليرات الذهبية ، فأعطوه مسهلاً وانتظروا نتيجة العملية بتؤدة ورجاء ، ولكن دون جدوى في مذهب املهم

وواصل سيره بهمة تزداد حيوية كلما اقترب من املاك « الدير » وكلما استنشق هواء الدار وطيب الحبيبة صغيريه العزيزين ، وهو لا يصدق انه سيرى ذلك المنزل الصغير ذا النافذة المربعة والباب المستطيل ، والثيران والحمار والبوابة وفوقها شجرة البيلسان ! . . واطلت منازل القرية واخذت تقترب . ولكنها كانت تتهادى وتضطرب من خلال حدقتيه الفاشيتين بدموع الفرح والشوق ، برغم صفاء الشمس المائلة الى الزوال . وقفز قلبه امامه ليفتح له البوابه ويبشر جميلة بقدوم الحبيب المتحرق شوقاً ولواعج ، وتهيأ هو ليبادهها بصوته ويضمها الى صدره ، فوجد البوابة مقفلة والدار مقفرة الا من بعض الكلاب والدجاج فتحول الى منزل قريب وسأل عن اهل الدار فقيل له انه ورد النعي بوفاة صاحبه ، في صفوف الحرب ، منذ شهور كثيرة ، وان عرى المودة اخذت تشد اواصرها بين جميلة وامين ، واخيراً ازفت ساعة عقدهما ، فتوجها الى المعبد لاجراء المراسيم على مرأى من سائر القرويين . . .

* * *

وقف عامر ، بلحيته الطويلة وثيابه الرثة ، في باب المعبد وهو مطأطىء الرأس منكسر القلب ، يتسمع مشدوهاً تهنئة الناس للعروسين اللذين اطلا مثلاً للود والاصطفاء ، وحين خرج الجمع وراء العروسين الجديدين ، لم يمد الا القليل يد الاحسان لذلك الفقير المستعطي الواقف بالباب ، وكان امين احد الذين مدوا يدهم بسرور ووداعة . . .

وبينما رداء الظلام يلتحف قرية الدير كان شبح يخرج منها وهو لايلوي على شيء .

اراشاه - البرازيل ابراهيم حبيب طنوس

رأي في دلالة القوافي

بقلم مظفر سلطان

☆

وكان الاجدر بي ان اقول : احساس في دلالة القوافي : لأن الاحساس الحر الامين هو الذي سيكون رائدي في كتابة هذا المقال ، ولان القوافي جزء من اجزاء بيت الشعر ، والشعر ضرب من ضروب الفن ، وهل يدرك الفن حق ادراكه الا بالحس . . . والحس الاصيل المرهف المنعتق قبل كل شيء ، وبعد كل شيء . . .

ولن اعرض في مقالي هذا للصلة الوثقى بين الالفاظ والمعاني : فان هذا من صنع البلاغة ، وللبلاغة رجالها واعلامها . واذا كان لا بد من كلمة عجلى اقولها في البلاغة ، فهي عندي هذا الانسجام الاكمل بين الالفاظ والمعاني التي تؤديها هذه الالفاظ ، حتى انك لتجد ان للمعنى الواحد بعينه لفظاً واحداً بعينه يعبر عنه دون غيره من الفاظ اللغة جميعاً ، وان للفظ الواحد بعينه معنى واحداً بعينه لا يكاد ينهض ، بل قل انه لا ينهض حقاً الا به دون غيره من سائر المعاني ، ولن اتحدث عن استئثار كل غرض من اغراض الشعر بالفاظ خاصة وتعابير خاصة واسلوب خاص وجو بياني خاص : فللفخر مثلاً الفاظه وتعابيره واسلوبه وجوه ، وللغزل الفاظه وتعابيره واسلوبه وجوه ، وللرثاء ما للفخر والغزل وغيرهما من الفاظ خاصة وتعابير خاصة وجو بياني خاص ، وبيتان من الشعر الجيد ، في فنين مختلفين ، تستعرضهما في مخيلتك او على لسانك يغنيان عن كل شرح وايضاح ، فخذ مثلاً قول ابن الدمينة :

الا يا صبا نجد متى هجت من نجد   لقد زادني مسراك وجداً على وجد

وقول الغلام القتيل :

انا الرجل الضرب الذي تعرفونه   خشاش كرأس الحية المتوقد

تر ان الفاظ البيت الاول ، وهو في الحنين والغزل ، وتعابيره وجوه اشبه بالنسيم العليل يمر بك وقت السحر رضياً ندياً حتى لكأنه انفاس الاحبة النعم ، وتر ان الفاظ البيت الثاني وهو في الفخر عنيفة عنيدة هادرة حتى لكأنها جلاميد الصخر حطها السيل من عل . . . اجل ، لن اتحدث عن هذا كله الآن ولكني سأتحدث عن ناحية جديدة من نواحي الاحساس بالشعر ولعلها جديدة عند بعض القراء ، قديمة عند فريق آخر منهم . . . وهي مجرد احساس كما قلت تكون في النفس مع الزمن ، ومن خلال مطالعاتي الادبية اليقظة ، ثم كتب له ان يرى النور على هذه الصفحات فان لم يكن قد جاء الحياة قوياً سوياً كما ارجو فعذري ان على الانسان ان يسير وليس عليه ان يصل . . . وعزائي ان ينشط من يحب من زملائي الادباء واساتذة الادب الى بيان رأيه في هذا الراي ، والتنبيه الى ما فيه من جور ، والتعقيب على ما فيه من نقص ، والاستطراد الى بحث كثير من نواحي ادبنا المغمورة فانه بها لحافل ، وانها الى هذا البحث الواغل البصير لفي اشد الحاجة !

قال مالك بن الريب التميمي — وقد جاءته المنية عند «مرو» يذكر غربته ويرثي نفسه بقصيدة طويلة رائعة هي من عيون الشعر العربي بل من عيون الشعر العالمي نكتفي منها بهذه الابيات :

تقول ابنتي لما رأت طول رحلتي   سفارك هذا تاركي لا ابا ليا
اجبت الهوى لما دعاني بزفرة   تقنعت منها — ان الام — ردائيا
تذكرت من يبكي علي فلم اجد   سوى السيف والرمح الرديني باكيا
واشقر محبوك يجر عنانه   الى الماء لم يترك له الموت ساقيا
فياصاحبي رحلي دنا الموت فانزلا   برابية اني مقيم لياليا
فخطا باطراف الاسنة مضجعي   وردا على عيني فضل ردائيا
خذاني فجراني ببردي اليكما   فقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا
غداة غد يالهف نفسي على غد   اذا ادلجوا عني وخلفت ثاويا
غريب بعيد الدار ثاو بقفرة   تهيل على الريح فيها السوافيا

والقصيدة كلها على هذه العزة وعلى هذا السمو الفني المجيد ، وانت ترى ان هذه الابيات قد بلغت الذروة الفنية الرفيعة صدق عاطفة وحسن اداء ، ولكنني احب ان تلتفت الى هذه القافية وهي الياء المفتوحة المشبعة . . . أفلا ترى معي انها فكرة عبقرية قائمة بذاتها وانها تسعف على التكامل المنشود في خلق الجو الفني للقصيدة ، وهو جو حزين ضارع واله . . . اني لأكاد اذهل عن انها جزء متمم من اجزاء البيت وانها قافية مسخرة . . . انها آهة عميقة ، بل صوت ضـارع واله ، بل صرخة حزينة عميقة موجعة . . . يرسلهـا القلب المرزء المفجوع لتتخطى مواكب الاجيال وتترامى على القلب المرزء المفجوع .

ولن اطيل . . . وان كانت نفسي تنـازعني الى الكلام في هذا الغرض حتى ينتهي الكلام ، وسأنتقل بالقاريء الصديق الى قافية اخرى معبرة ، بل قل الى جو شعري آخر تخلقه قافية اخرى معبرة ، فانشده هـذه الابيات الاربعة لابن ابي ربيعة في الغزل . . . الغزل البريء او المتهم ، ولكنه الغزل الرشيق الانيق الذي يشيع في الوعي كالسلاف السـائغ فاذا النفس تشرق من متاع وطرب ، واذا الحيـاة خمر وشعر ، ونفحة ووتر . قال صاحب الثريا :

فلزمتهـا فلثمتها فتفزعت … مني وقالت من ؟ فلم اتلجلج
قالت وعيش ابي وحرمة اخوتي … لانبهـن الحي ان لم تخرج
فخرجت خوف يمينها فتبسمت … فعلمت ان يمينهـا لم تحرج
فلثمت فاهـا آخذاً بقرونها … شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

هذه الجيم المكسورة . . . الست ترى معي انهـا تهزج في سمعك ، بعد هذه المعاني الرقيقة والتعابير الرشيقة ، كخفقات جنح مرح تستهويك وتصبيك ، وتحبب اليـك الشعر والشـاعر ، وتغريك بابهج الوان الغزل . . . الغزل البريء او المتهم ، ولكنه الغزل الرشيق الانيق الفاتن ؟ . . .

وليسمح لي القاريء بان امضي به قدماً فانتقل الى قافيـة جديدة من حولها جو شعري جديد فليس في الوقت ولا في صبره متسع . قال مالىء الدنيا وشاغل الناس يمدح سيف الدولة من قصيدة عامرة هي في يقيني من اروع مـا قال المتنبي في مدح مليكه بل في المديح اطلاقاً :

بناها فأعلى ، والقنـا يقرع القنا … وموج المنـايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فاصبحت … ومن جثث القتلى عليهـا تمائم
اتوك يجرون الحديـد كأنمـا … سروا بجيـاد مـالهن قوائم
خميس بشرق الارض والغرب زحفه … وفي اذن الجوزاء منه زمـازم
وقفت وما في الموت شك لواقف … كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الابطـال كلمى هزيمة … ووجهك وضاح وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى … الى قول قوم انت بالغيب عالم

وهذه الميم المضمومة . . . اتراها تعبر في مثل هذا الموقف العصيب وفي مثل هذا الجو الرهيب الا عن الثقة والجزم والحزم والهول المتحفز ، وهل هي الا بؤرة عميقة انحدرت اليها وتمركزت فيها كل معاني المتنبي البكر والفاظه المجلجلة وتعابيره المدوية وجرسه الشعري الرائع . . .

وهل تراني اذهب مع الاحساس مذهباً شططاً اذا قلت ان كل ما تمركز في بيت بشار بن برد من قصيدته البـائية ومن ابياته الاخرى من معان فريدة والفاظ عتيدة وعزة غالية انما يتمركز في هذه الباء المضمومة تليها الهـاء الساكنة اذ يقول مفتخراً :

اذا الملك الجبـار صعر خده … مشينـا اليه بالسيوف نعاتبه

ومثله بيت ابي تمام وابياته الاخرى في قصيدته البائية ايضاً اذ يقول مادحاً :

وقد يث عبدالله خوف انتقامه … على الليل حتى ما تدب عقاربه

وتأمل دلالة هاء التأنيث ، في هذه الابيات ، وقد قالهـا الشاعر يتغزل بانثاه الحبيبة :

ان التي زعمت فؤادك ملها … خلقت هواك كما خلقت هوى لها
فاذا وجدت لها وساوس سلوة … شفع الضمير الى الفؤاد فسلها
بيضاء باكرهـا النعيم فصاغها … بلبـاقة فأدقهـا واجلهـا
لمـا عرضت مسلماً لي حـاجة … اخشى صعوبتها وارجو ذلهـا
منعت تحيتها فقلت لصاحبي … ما كان اكثرها لنـا واقلها
فدنـا فقال لعلهـا معذورة … في بعض رقبتها فقلت لعلهـا

وتأمل دلالة تاء التأنيث ايضاً في قول كثير متغزلاً :

هنيئاً مريئـاً غير داء مخامر … لعزة من اعراضنا مـا استحلت

وفي قول الشنفرى وهو افخم واضخم واغرب الشعراء لفظاً :

فدقت وجلت واسبكرت واكملت … فلو جن انسان من الحسن جنت

ومثل هذا كثير كثرة تكاد تجعله عزيزاً على الحصر والذكر . . . واحب ان لا يفوتني ذكر حادث طريف اتفق لي مع احد الزملاء الادباء الذين اشهد لهم بالطبع الاصيل والذوق المصفى . . . فقـد لقيته في صبيحة يوم من ايام الربيع في احدى الحدائق يستروح ، ولما اقبلت عليه مسلماً هتف يقول : لأجدي عليك من التحية هذه القصيدة البكر التي وقعت عليها منذ ايام . . فقلت : هات ولا تمهل ، فقـال هي لابي صفوان الأسدي وهو شاعر مجهول عندي في اقل تقدير ، وقد رأيتها في كتاب الامالي

وانك سترى انها من عيون الشعر ان لم تكن هي عينه ومقلتـه وقلبه .. ولكن ... ولكن فيها عيباً وأسفـاه ... ولن اذكره لك ريثما تسمع القصيدة فتتفطن اليه انت بنفسك . . فقلت استعجله محنقاً : انك لتكاد تفسد القصيدة — على روعتهـا المنتظرة — بهذه التمهيدات والمقدمات هـات ... اسرع ... فانشد الصديق .

نـأت دار ليلى وشط المزا   رفعيناك مـا تطعمان الكرى

ثم استطرد الى وصف الحنش فقال :

ومن حنش لا يجيب الرقـاة   اسمر ذي حمة كالرشا
له في اليبيس نفـاث   يطـير على جانبيه كجمر الغضا
وعينـان حمر مـآقيهما   تبصان في هامة كالرحى
اذا مـا تشـاءب ابدى له   مذربـة عصـلاً كالمدى
اصم صموت طويل السبـات   منهرت الشدق حارى القرى
كأن حفيف الرحى جرسه   اذا اصطك اثناؤه وانطوى
ولو عض حرفي صفاة اذن   لانشب انيابه في الصفا

حتي انتهى الى وصف الصقر فقال :

ترى الطير والوحش من خوفـه   جواحر منه اذا مـا اغتدى
فبـات عذوبـاً على مرقب   بشـاهقة صعبـة المرتقى
فلما اضـاء له صبحـه   ونكب عن منكبيه الندى
وحت بمخلبـه قارتـاً   على خطمه من دماء القطا
فصعـد في الجـو ثم استـدا   ر وطار حثيثاً اذا ما انصمى
فآنس سرب قطـا قـارب   جبـا منهل لم تخنه الدلا
غـدون باسقيـة يرتـوين   لزغب مطرحـة في الفـلا
فـاقعص منهن كـدرية   ومزق حيزومهـا والحشـا
فطـار وغـادر اشلاءهـا   تطير الجنوب بهـا والصبـا

وسكت صاحبي وجعل يتفرسني منتظراً ان اتفطن على زعمه — الى العيب الظاهر في هذه القصيدة العقبرية النادرة ..

واستعدت القصيدة مرة اخرى ثم قلت : اذا كان في القصيدة من عيب ، فعيبها انها لا يمل سامعها ابـداً .. وانها لتزداد على النشيد والترديد جمالاً وكمالاً ... وانك تقول انك لم تعرف بعد شيئاً عن صاحبها ، ولم تظفر له بشعر آخر .. يمن الله انها عندي لمن اكمل ما ابدع الفن الانساني اطلاقاً ..

فقال الزميل بتحفظ : والقافية ؟! ..

فقلت في عجب : القافية .. وما بها ؟..

فقـال في تلكؤ وتهيب : ألا ترى معي ان في الالـف المقصورة هذه ظلالاً من الجفاف والعنف والغلظة

فنظرت اليه بحنق كما لو انه كان قد سبني وقلت : كل ما في القصيدة جميل عظيم رائع ايها الغافل .. واجمل ما فيها هذه الالف الخشنة الجافة المقصورة ..

* * *

والآن .. وقد رأيت كيف تتناسق الباء المضمومة القوية في بيتي بشار وابي تمام وتتكامل مع روعة المعاني وجزالة الالفاظ ، فانظر كيف تتجافى — عندي انا في اقل تقدير — النون المضمومة مع المعاني والالفاظ والجو جميعاً في قول صفي الدين الحلي :

عـانده في الحب اعوانه   وخـانه في الود اخوانه

بل تأمل شناعة هـذه النون المضمومة السمجة بعد شناعة هذا الجناس القاتل :

ما شـانه الا مقال العدا   وقد همت عيناه ما شانه ؟..

وادق من هذا عندي واعمق — واعود فاذكر بانني انما اتحدث عن حسي الشخصي قبل كل شيء — ان الحرف الواحـد ذا الحركة الواحدة انما يستمد جرسه ودلالته من الفاظ البيت ومعانيه وجرسه وجوه ، واعود فاحيلك الى بيت ابن الدمينة :

الا ياصبا نجد متى هجت من نجد   فقد زادني مسراك وجداً على وجد

وبيت طرفة بن العبد البكري :

انا الرجل الضرب الذي تعرفونه   خشاش كرأس الحية المتوقـد

ترى ان الدال المكسورة في البيت الاول قـد قبست من معاني البيت الرقيقة والفـاظه الانيقة وجوه المغرّد السهولة والعذوبة والرقة فكانت كالقبلة الحلوة يختلسهـا الحبيب من ثغر حبيبه قبيل الفراق ، وترى ان الدال المكسورة نفسها قـد استمدت من معاني البيت الثاني المريدة والفاظه المصممة وجوه العزيز ، القوة والعزة والضعف فكانت كافرند السيف يتهلل ، او كرأس الحية يتوقـد ، او كعزيمة الشـاعر يندفع فاذا هو كالاعصار لا يبقي ولا يذر .

واحسبني قـد اطلت وما وفيت الموضوع كله او بعضه ، وانما هي ومضات ولمحات ابتعثها الحس وزجاها الشوق وما على الانسـان ان ينجح بـل عليه ان يعمل وفوق كل ذي علم عليم ...

مظفر سلطان   حلب

الشاعر

مهداة الى الدكتور سليم حيدر
القائم باعمال المفوضية اللبنانية في ايران

☆

انتِ يا نشوة الشذى والعبير   عمرك الله لا تثيري شعوري
ودعيني على الطريق ازجي   خطواتي ، نحو الغد المغمور
لن تكوني سوى شقيقة حلمي   وصلاتي ، وخشعةٍ في ضميري

***

انتِ ازكيتِ نار حبي ووجدي   وطموحي نحو العلى وغروري
وتركت الضحوك من املي الرطب   هشيماً على غريب المصير
فانجديني يا ربة الشعر اني   متعب القلب مثقل التفكير

***

انتِ يا رعشة الفراش على النور   ويا هالة السنا والضياء
عطّر الورد بالعبير جناحيكِ   على موجة الرؤى البيضاء
انتِ روحٌ لشاعرٍ ينثر الشعر   على قارب الهوى والرجاء

***

شاعرٌ تملأُ الرياض اغانيه   فتسري والقوح بعض رواته
تتعرى على يديه القوافي   فيحلي اعناقها بهباته
ألهب الحب صدره فهو يعطي   من صميم الفؤاد من حباته

***

يا نجيّ الزُهر الحسان القوافي   ونديم الآمال وهي تعلة
انتَ في يقظة التذكر نور   وعلى بسمة الافانين قبلة
انت في دورة الزمان رقيب   انت عين على العصور مطلة

***

انتَ للجيل ثورة الجيل ، فكر   مرهف الحس احمر اللون ثائر
إيه يا مرقص النفوس على الشدو   لمن تنثر القوافي السواحر
ولمن تهصر النديّ من العمر ؟   لمن تعصر الصبا يا شاعر ؟ .

***

شاعر يسكب الحياة كما يفهم   سر الوجود من دنياه
اشبع العمر من لذائذها الحمر   فذابت على الشفاه الشفاه

فاذا الشعر لفتة الامس والذكرى   ونور يطل منه الله

***

هو دنيا من الجمال ودنيا   من خيال ومن هدى وحياة
هو لحن في غنة اللحن طلق   غلفته الايام بالعبرات
صوته يغمر الخلود وان بحّ   فشدو الخلود في البحات

***

سائل الكأس والمدام . اذابت   شفة الكاس من شفاه ظمائه ؟
ام تلوت من العياء بكفيه   فضجت في كفه وهو تائه
تعبت منه مدمناً يعشق الخمر   فذابت وذاب من اعيائه

***

سائل الكأس وهي اعرف بالشاعر   منا اغيرت من طباعه ؟
ام تهاوت في شعره تسكب الوحي   رقيقاً وترتوي من يراعه
هو ظمآن للنجوم من العمر   وهذي تلج في ارجاعه

***

قرب الكأس واحتسي الخمر والطيب   لفكرٍ على الزمان مدل
دغدغته يد الطلى فاستفاق   الشدو والشعر في نديّ مهل
فاذا الناس سجد لفتى الشعر   وما فيه من نبوغ مطل

***

فعلى صفحة الغد الحلو نور   من نبيه ومن الوانه
وعلى خضرة الربيع ربيع   لوّن الصبح والسنى من جنانه
وعلى خفقة الطيوب وعرف   الكأس والطيب دفقة من دنانه

***

هو عرس الخلود عرس الغد   المجهول عرس المخضوضرات النوادر
هو في الكون خاطر مرت   الآمال فيه ولم تزل في الخاطر
هو جزء من الالوهة في الارض   وروح مجنح ، هو شاعر
جئت للناس بالرحيق المصفى   بالنسيم العبيق في « آفاقك »
فاذا الشعر بعد ظلمته الدكناء   يزهو بالنور من اشراقك
فعذارى الخلود في افقك الرحب   استحمت بالطيب من اوراقك
خذ لوادي الخيام والفردوسي   نغمات الخلود من لبنانك
صور اليقظة الفتية في لبنان   وارسم الوانها ببيانك
يا رسول الآلام والشعر انشد   فكرة العتق في ربى « ايرانك »

بعلبك   جوزيف صحا



تاريخ لبنان

للاستاذ الفونسو نجيب عواد – ٤٠٠ – صفحة
منشورات « امير » – المكسيك

نحن هناك في المهاجر ، لعلنا اكثر حيوية ، بل نحن هناك كذلك في غير شك او ريب .

ولذا لا نفتأ نرى مهاجرينا ، يطالعوننا ابداً بثمرات قرائحهم الشائعة بالخصب ، والشائعة بمعنى اخطر واكبر قيمة وهو الابتكار ، ان في الادب او في اي حقل آخر من حقول الانتاج .

ويهزهم الحنين احياناً بل كثيراً ما يهزهم ، فاذا بهم يكتبون لنا ويكتبون عنا ، واذا بنا نقرأهم في لغة وشغف ونهم ، حتى لكأننا نقرأ ما لم نكن نعرف ونعهد ، ونرى صورنا على اقلامهم مأخوذين ، حتى لكأن عهدنا لم يكن بها الا منذ حين . وهـذا دون ريب بعض من هبات الابداع الذي تميزوا به .

وبين يدي اليوم كتاب اراده مؤلفه المحامي الشيخ نجيب عواد تاريخاً وتاريخاً لوطنه باللغة الاسبانية ، اذاب فيه حنينه وما اتصل بالحنين من احاسيس وعواطف ، بله ما امتاز به من نزعة صادقة في التاريخ دقيقة في البحث .

ونرى حسناً ان نضع تحت نظر القراء تقاسيم الكتاب ، وبه يدركون بعضاً من قيمته ويقعون على مبلغ ما فيه من جهد .

قسم المؤلف الكتاب الى اجزاء ، تناول في الجزء الاول ما قبل التاريخ ، فبحث (١) الاعتبارات الاولية والحاجة للفصل بين تاريخين (ب) الاسم والمركز والحدود (ج) تكوين لبنان الجيولوجي (د) اللبناني البدائي Primitif العصر الحجري .

وتناول في الجزء الثاني فينيقية فدرس فيه (١) المهاجرة في البحر الاحمر واصل الفينيقيين . (ب) الفينيقيون في لبنان (ج) توغل الفينيقيين في الاراضي الداخلية . (د) الدين في الحياة الفينيقية . (هـ) تطور وازدهار المدن الفينيقية . (و) الاتجاهات الديموقراطية في انظمة المدن الفينيقية . (ز) الانكليز القدماء والاسطول الفينيقي مستعمر البحر الابيض المتوسط (ح) الحملات البحرية – العودة الى افريقيا من ذكر الى شواطيء اميركا . (ط) الحضارة الفينيقية – العلوم والصناعة والهندسة الدينية والمدنية – النحت – المعادن – الادب .

وتناول في الجزء الثالث مرحلة الانتقال ، فدرس : (١) انقسام امبراطورية الاسكندر . (ب) فينيقية الرومانية . (ج) العهد البيزنطي . (د) المسيحية – مثل من سيرة حياة القديس مارون والكنيسة المارونية . (هـ) مار يوحنا مارون البطريرك الماروني الاول (و) العرب – النبي محمد (ز) الارستوقراطية العسكرية – الامويون (ح) العباسيون – اثر ثلاث حضارات ، (ط) المماليك .

وتناول في الجزء الرابع لبنان في عهوده الاخيرة فبحث (١) العهد العثماني (ب) وضع الجبل (ج) فخر الدين (د) الموارنة والدروز (هـ) الشيعة (و) الجزار (ز) جبل عامل والادب العربي (ح) نابوليون في الشرق (ط) حكومة الامير بشير (ي) محمد علي والامير بشير . (يا) ثورة عام ١٨٤٠ (يب) نضال لبنان في سبيل حريته . (يج) النزاع الداخلي . (يد) لبنان الكبير . (يه) الجمهورية اللبنانية . (يو) لبنان والحرب الكبرى الثانية . (يز) العالم في نصره الحق – لبنان جمهورية عربية ذات سيادة واستقلال .

هذا مجمل ابحاث الكتاب وهو يرينا مبلغ ما فيه من جهد ومبلغ ما فيه من استيعاب ودقة في التصنيف والانتقالات . ومما يؤسفنا ان نجد هناك من يؤرخ لنا بعيداً باحسن من كل ما قد وضعنا حتى اليوم .

منوال يونس

الله ... لبناني

للاستاذ فرج الله حايك – ٢٠١ صفحة – المطبوعات الشرقية الجديدة – بيروت

هذا كتاب ألفه بالفرنسية اديب لبناني ، وهو – يقول في

المقدمة ، ما نترجمه فيما يلي « هذا الكتاب موجه الى الفرنسيين قبل كل شيء ، وهو يريهم ما اخفى عنهم حكامهم عن ارادة وتصميم . ولما كان الفرنسي معنياً بهذه القضية اكثر من اي اوربي آخر ، فان له الحق بمعرفتها ، ولهذا كانت هذه الصفحات ، صفحات صديق ، وسيجد فيها الفرنسيون عتاباً ونقداً ومآخذ .. لقد اضعفت فرنسا مراكزها في لبنان بدلا من ان تعززها . وقدشجع الحذر الذي أثاره ممثلوها في الشعب اللبناني ، والذي اعقب جراحات كثيرة عميقة ، على تفتح الشعور الوطني . لقد نصبت فرنسا نفسها حامية للاقليات المسيحية ، ولكن المسيحيين لم يكونوا بعد مهددين ، اما لان اخوانهم المسلمين قد اصبحوا اكثر تساهلا ازاءهم ، واما لانهم ادركوا ان خير وسيلة لاخراج الاجنبي هي الاتفاق معهم . وقد خلق تيقظ الشعور الوطني عند المسيحي في لبنان رغبة التحرر من هذا الرهن الذي كان لفرنسا عليه . ولكن لا يبغي — اذ يتحرر — ان يضع حداً لصداقته مع فرنسا فان التجربة قد اثبتت — بالعكس — ان هذه الصداقة، عن بعد، اقوى منها عن قرب واصفى »

وقد قسم المؤلف كتابه الى ستة فصول ، يتكلم في اولها عن « لبنان » فيشير الى تقصير الفرنسيين في التعرف اليه ، ويبدو لنا فيه لبنانياً يتعشق وطنه بطبيعته وجماله وجنانه ، ويتحدث عن خصائص اللبناني وميزاته ، وعلاقته بالله « الذي هو صديق قديم له ، حين يشاء ان يكلمه ، يضع قلبه الخافق على راحة يده، ولا يسعى في ان يحاوره او يداوره ليفهمه، وانما يعتقد به وحسب وينسى الناس ان الله ليس فرنسياً ولا انكليزياً ولا المانياً . انه شرقي ! ذلك ان جبل الخليل، مهد المسيح،قطعة طبيعية من الجبال التي تؤلف لبنان .. واذن ، فان الله لبناني ! » وهذا خيال لايخلو من المتعة والطرافة ! ويتطرق المؤلف بعد ذلك الى اديان لبنان فيحاول ان يثبت ان تعددها يرفع من شأنه ، لانه يدل على المرونة وينم عن انه يعرف ان يكافح في صميم ذاته وخارجها .
وينهي الاستاذ حايك هذا الفصل بالتحدث عن اثر البيئة في اخلاق اللبناني وطبيعته ، وتأثير الجو في عناصر نفسيته .

ويخصص الفصل الثاني للكلام عن فرنسا ، ومعرفة الشرقي لها وخصائص الفرنسي كسطحيته وعدم ثباته وتسرعه ويشير الى الانحطاط الذي بلغه الادب الفرنسي مؤخراً . ويخرج من هذه المقابلة بمعادلتين في الفصل الثالث ، اولاهما ان خصائص الفرنسي تشكل قوة مادية هي حب السيطرة ، واخراهما ان خصائص اللبناني تؤلف قوة معنوية هي الحرية . ولم يكن بد لهاتين القوتين من الاصطدام ، ولقد اعتمدت فرنسا في سبيل تعزيز هذه السيطرة على وسائل دينية كان اهمها ارسي المبعوثين اليسوعيين ، ابواق الدعاية الفرنسية التي كانت تخفال خلفوا المصالح والاطماع .

فاذا كان الفصل الرابع ، تحدث المؤلف عن اخطاء الفرنسيين في بلادنا ، فاما الاخطاء البسيكولوجية فتتلخص بانعدام رغبة الغرب في تفهم الشرق ، وخطأ فرنسا الاكبر في هذا المضار هو انصرافها عن فهم شعب عجن بالثقافة الفرنسية ، واما الاخطاء الادبية ، ففي ذلك الوصف السطحي المشوه الذي حمله الكتاب والصحفيون الفرنسيون عن لبنان ، اولئك الكتاب الذين لم يجدوا في بلادنا شيئاً « هاماً » سوى جباله ووديانه وأرزه » مثل جيرار دونرفال وفلوبير ورنان وتارو اخوان ، ويستشهد المؤلف هنا بما فعله هنري بوردو في روايته « جميلة في ظلال الارز » : فهو يرى كلمة « عيلة » اكثر انسجاماً من « جميلة » ، ويقول المؤلف تعليقاً على ذلك : « فكروا لحظة فيما عسى تكون رواية عن لبنان يؤثر مؤلفها نفسه « الانسجام » على « الحقيقة »! وفي حقل هذه الاخطاء يعتقد المؤلف « ان الجرائم الادبية لا تغتفر ، لانها تظل تتنقل من يد الى يد ولو حرص الكاتب على ان يقفها لقد انصرف الرأي العام الفرنسي عن لبنان لانهم لم يظهروه له على حقيقته : جديداً ، جذاباً آسراً » . اما الاخطاء السياسية فيعزوها المؤلف الى المفوضين السامين العسكريين والمدنيين ، الذين كان مطلوباً منهم ان ينصحوا ، فكانوا يأمرون ، وان يساعدوا ، فكانوا يفرضون التدابير ، وان يرشدوا ، فكانوا يقودون ، وهكذا كان سوء اختيارهم سبباً في سلسلة غير محدودة من الاخطاء . ويتطرق الاستاذ حايك بعد ذلك الى الاخطاء الانسانية من مثل استغلال الفرنسيين لاقتصاديات البلاد وضعف المواصلات والزراعة واختلاس ذهبنا واخطاء بنك الاصدار .. ويعنى عناية خاصة بالتحدث عن اليسوعيين الذين يديرون المعاهد الفرنسية في لبنان فيؤثرون بالغ الاثر على الطائفة المارونية ، ويجهدون في قتل الحس الوطني عند كل طالب .

« وهكذا كان الانتداب (الفصل الخامس) محاولة استعمار اصطدمت بروح قوية من الاستقلال .. وقد ايقظنا الانتداب من سبات اغرقتنا فيه ثقة ساذجة . وكان درساً قاسياً لفرنسا.» وقدعقد المؤلف بحثاً خاصاً عن « الكتائب اللبنانية » وعن جهادها

وتاريخها، ثم تحدث عن الحوادث الاخيرة التي مرّ بها لبنان ،وانهى كتابه بكلمة وجهها الى الشعب الفرنسي ذكره فيهـا بعظمته وبالدور الذي ينتظره في المساهمة ببنـاء العالم ، واشار الى ان ممثليه في لبنان قد خانوه ، فاستحقوا ان يحاكموا ٠٠٠

٠٠٠

هذا ملخص – نحسبه وافياً – لكتاب « الله .. لبناني » الذي صدر في وقت يغادر فيه آخر فوج فرنسي الارض اللبنانية ، ولا شك في ان صدوره في هذا الوقت ملائم جـداً ، وصدوره باللغة الفرنسية اكثر ملاءمة واقرب الى الغـاية المقصودة . ولعل هذا الكتاب القيم افضل الكتب التي صدرت في هـذا المضار ، لانه يصور الحقيقة والواقع بكثير من النزاهة والصداقة والصراحة . وقد بلغ المؤلف غاية التوفيق في هذه الدراسة التي شاءها ان تكون بسيكولوجية ، لا تاريخية . والحق ان الاستاذ حايك ظهر في هذا الكتاب بمظهر عالم نفس دقيق يتمتع بحاسة تحليلية مرهفـة ، وقد وفق في استجلاء عوامل الحرية عند اللبناني وفي حديثه عن الصراع المزمن الذي يتنازعه بين روحه الشرقيـة وجسمه الذي ينزع الى الغرب . وعلى الرغم من انه لا يدعم آراءه في خصائص اللبناني والفرنسي بوقائع او استشهادات عامة ، فان هذه الآراء اقرب ما تكون الى الحقيقة والواقع ، لانها تحس « بفتح الحاء » اكثر مما تدرك .. وبوسع القـارىء ان يشعر بان المؤلف شاعر واسع الخيال ، ملون العبارة حين يصف لبنان وروائعه ، وهو الى ذلك ينعم بحس السخرية والفكاهة الطلية .

والذي لا شك فيه ، ان وطنية الكاتب تبدو في كل سطر من سطور هذا الكتاب ، وهي وطنية واعية مثقفة ، وقد يزيد في صدقها وصراحتها كون المؤلف قـد نهل ثقافته من المنبـع الفرنسي وعـايش الشعب الفرنسي عن كثب ، غير ان ذلك لم يطفىء فيه جذوة الوطنية ، كما اطفأها في كثير غيره من الذين رضعوا من ثديي الثقافة الفرنسية في هذه البلاد .. وهو لا يؤمن بالمعاهدات الثقافية « لان الثقافة التي تلائم شعباً ما ، وتنسجم مع اوضاعه الطبيعية وتقاليده وتطورة السياسي، لا فائدة من ان يجعل منها موضوع اتفاق خاص » .

غير ان لنا بضع ملاحظات نعتقد انها تستحق التسجيل نوردها فيما يلي :

١ – يقول المؤلف (ص ٣٣) : « لما كان المسيحيون اقلية ، فقد كانوا دائماً مغلوبين على امرهم واذلاء .. وقـد ادركوا انهم سيهاجمون دائماً ، ولو اعتنقوا الدين الاسلامي او الدين الدرزي ، وهم لذلك آثروا ان يحتفظوا بدين آبائهم وان يكونوا ابطالا .. »

وكنا نودلو ان هذه الفكرة المغلوطة لم ترد في هذا الكتاب القيم ، لان فيها نزعة عصبية ننكرها كل الانكار ، ولانها من ناحية اخرى تخالف الواقع التاريخي .

٢ – يقول الاستاذ حايك (ص ٤٩) : « نحن شعب لبناني ونريد ان نبقى لبنانيين .. ونرفض ان نتحـول الى « عجينة » لتدع لايد اجنبية ان تكيفنا على هواهـا .. أليس ذلك هو الاساسي ؟ ان هذه ابرز صفات شخصيتنا . ان مؤثرات كثيرة تؤثر علينا ، ولكن هذه المؤثرات تضـاف الى ميولنا الطبيعية ولا تعكرها .. وبكلمة واحدة ، لبنان قائم بذاته ، وليست لنا لغة خاصة ، ولكننا نملك طريقة تعبيرنا »

كان بوسع القاريء ان يمر بالعبارات الاولى من هـذه الجملة دون ان يتساءل عن قصد المؤلف الصريح .. أيكون من دعاة « العزلة » ؟ وسواء كان ذلك كذلك ام لا ، فليست القضية هنا ، وانما هي في قوله « وليست لنا لغة خاصة » هل ينكر المؤلف ان تكون العربية لغتنا الخاصة ؟ .. وما هي طريقة التعبير عندنا ان لم تكن العربية ؟ اننا مدفوعون الى هذا التساؤل ، لاننا لم نستطع ان نجد تاويلًا لهذه العبارة .

٣ – يعزو المؤلف جميع الاخطاء التي وقعت فيها فرنسا في لبنان الى الرجال العسكريين والمدنيين الذين ترسلهم ، بمعنى ان القضية هي سوء اختيار لرجال . وهذا مـا نخالف به الاستاذ المؤلف ، لان المسألة في جوهرها ابعد مدى واعمق جذورا : انه خطأ السياسة الفرنسية عامة . سياسة الاستعمار والمصلحة ، ولو كانت فقط اخطاء رجال بعينهم ، لكان ربع قرن من الانتداب كافياً كل الكفاية ليظهر الفرنسيين على اخطائهم الاولى فيتفادوا ارتكابها فيما بعد . وهذا هو الذي لم يحصل مما يجعلنا نوقن ان حب السيطرة والاستعلاء من طبيعة الفرنسي ، وهـذا نفسه هو الذي يحدو بنا الى كره السياسة الفرنسية بصورة عـامة . ونحن لن ننسى ان الحكومة الفرنسية كانت توافق دائماً على سياسة رجالهـا في لبنان حتى في هذه السنوات الاخيرة مما بدا جلياً في موقف حكومة ديغول وبيدو في مجلس الامن . ويقيننا ان فرنسـا ستنتهج هذه السياسة نفسهـا في كل بلد تستعمره او تنتدب عليه ..

٤ – عقد المولف فصلًا قائماً بذاته عن « الكتائب اللبنانية »

استغرق خمس صفحات بكاملها ، في حين انه اكتفى باربعة اسطر عن « النجادة » ولم يأت ابداً على ذكر سائر المنظمات . فان كان تناول الحديث عن « الكتائب » كحلقة خاصة من سلسلة الجهاد الوطني ، فكان حرياً به ان يتناول جميع الحركات التي لابست هذا العهد ، وان كانت احدث عهداً من « الكتائب » ، كما كان يجدر به ان يخص رجل الشارع بقسط من حديثه ، هـذا الرجل الذي ساهم في الحركة الوطنية اكبر مساهمة .. لو فعل المؤلف ذلك ، اذن لنفى عنه صفة « التحيز » في هذا الشأن ..

٥ — يقول المؤلف (ص ١٩٧) : « انني اتساءل عما عساه يحدث لي ، ويحدث لعشرات الالوف من اللبنانيين اذا وقعت كارثة ما فحرمتنا الكتب الفرنسية انـنا لا شك نموت كما يموت الناس جوعاً وعطشاً .. وان صداقة كهذه ليست ضعيفة ، فان جذورها في الارض والفكر ، وهي شديدة ثابتة بسبب رخاوتها نفسها ، فحولها ترتم وبها تنسجم حياتنا الداخلية كلها . »

نحن كالمؤلف معجبون بالثقافة الفرنسية ، ومحبون لآدابها ونتاجها ، ولكن اعجابنا بها وحبنا اياها لا يبلغان — مهما اشتدا — الحد الذي نموت عنده اذا وقعت كارثة ما فحرمتنا الكتب الفرنسية »! .. وليس تعشقنا للادب الفرنسي من القوة بحيث نعتقد ان حياتنا الداخلية لا تنسجم ولا ترتسم الا به » وذلك لسببين اثنين : اولهما ان رغبتنا في الارتشاف من مناهل الآداب العالمية كلها في سبيل توسيع ثقافتنا في المدى والعمق تحول بيننا وبين الاجتزاء بلون معين من الادب ، او شكل خاص من الثقافة لا بد ان لها نقائص ومساوىء . وثاني السببين ان علينا ان نلتمس غذاءنا الروحي ، لا في الآداب الاجنبية وحدها ، بل قبل كل شيء في ادبنا الخاص ، وان تكون حياتنا الفكرية قائمة على اسس من الابداع والانتاج الذاتي ، اذا كنا نحرص على ان تكون لنا شخصيتنا الخاصة التي هي نسيج وحدها .. ونعتقد اننا بلغنا من الثقافة والاكتمال الروحي حداً ينبغي عنده ان تكون لنا شخصية ثقافية قائمة بذاتها .

٦ — ولنا ملاحظة أخيرة ، شكلية هذه المرة ، تتناول عنوان الكتاب ، فقد رأى القارىء من تلخيصنا ان الكتاب قيم وهام تطغى عليه الرصانة العلمية ، وهو اجدر بعنوان رصين لا يدعو الى الدهشة ولا يستلزم التساؤل الطريف ؟!

سهيل ادريس

حل الطلاسم

للاستاذ محمد الجواد الجزائري — ١٨٣ صفحة — نشر جمعية الاصلاح بيروت .

العلامة الشيخ محمد الجزائري عرفته مدينة بيروت عن قرب ، فعرفت فيه اديباً كبيراً غني البدوات ، وفوق الاديب عرفت فيه العالم المحصن السليم الاداة في مراتب النظر العقلي ، فاحتفت به واحتفلت وكان حقاً ان تحتفي وتحتفل .

على انه شاء ان يخص هذه المدينة بتذكار يظل حبيباً في هوى نفسه ، كما هو حبيب في هوى نفوسنا ، فنشر فيها هـذا الاثر النفيس الذي نعرف به اليوم ، ولعلنا لانتهم بالافراط اذا نحن نظرنا اليه نظرنا الى اثر ادبي فريد ، فقد تأتى لشاعرنا ان يبسط قوادمه محلقاً في افق قل الحائمون عنده وقريباً منه .

وحل الطلاسم ديوان او قل معارضة شعرية لطلاسم ايليا ابي ماضي ، سالك فيه الى مجاهلها بقدم مطمئنة ، لا تتردد ولا تتعوج ملتفة على نفسها في تعقد مريض . انه ينظر الى اشياء الطبيعة وما وقع وراءها ، نظرة المستشف المستشرف في اطمئنان المؤمن وثقة المتنور الذي كأنه يرى .

فيقوم عنده مقام الانقباض والتهجم والكآبة والضيق ، التي يلابسك مسيسها وانت تمضي في طلاسم ابي ماضي ، اضدادها جميعاً في الق جمال وتداوة غبطة ، وليس في جوه الذي يجهد بعد سمائه شائبة اكفهرار بل صفاء تنضر اديمه سحائب بيض . فيبدو وكأنه سقراط في ثوب الشاعر ، يأخذ السبيل على السوفسطائية ونظرتها اللاأدرية .

ومن الخير ان نقتطف مقطوعتين ، تظهرانها في لونين من جمود وايمان .. من طلاسم ابي ماضي :

قد دخلت الدير استنطق فيه الناسكينا
فاذا القوم من الحيرة مثلي باهتونا
غلب اليأس عليهم فهو مستسلمونا

واذا بالباب مكتوب عليه « لست ادري » .. من حل الطلاسم للجزائري :

نظر الراهب في الدير الى الصحو طموح
وعليه دله المنطق والشكل الصحيح
فهو في شوق الى لقياه يغدو ويروح
ليس يدري غير ذكراه حديثاً « انا ادري »



نشرت الاديب في عددها الماضي ترجمة مقتضبة للشاعر نسيب عريضة الذي واراه الموت في اول نيسان الفائت بعد ان ابلى البلاء الحسن في الكشف عن اعمق احاسيس المهاجر على ضوء الحنين والعاطفة ،

وتنقل « الاديب » اليوم الى قراء العربية الكلمة الطيبة التي القاها صديقنا الدكتور قسطنطين زريق القائم باعمال المفوضية السورية في الولايات المتحدة في الحفلة التذكارية التي اقيمت لذكرى الشاعر الكبير مساء الاربعاء في ١٥ نوار ١٩٤٦ ، ولقد نشرت الكلمة في زميلتنا « السمير » اليومية الاميركية :

☆

نسيب عريضة

☆

انه ليسرني ويشرفني ان ادعى الى الاشتراك في هذه الحفلة التي يقيمها ادباء نيويورك العرب واعضاء الرابطة القلمية لاحياء ذكرى الاديب الملهم نسيب عريضه . وللاحتفاء بديوانه النفيس « الارواح الحائرة » فقد كنت عزمت منذ جئت هذه الديار لاعمل في خدمة سوريا المستقلة على ان اتصل باولئك الذين رفعوا اسم سوريا والعروبة فيها عالياً . لاستمد منهم صائب الراي وجليل الخبرة . ولأؤدي لهم قسطي من التأييد والمشاركة فانسج خيطاً جديداً بين المغتربين والمقيمين بعد ان عمل الزمن وتباين الاحوال على اضعاف ما بين الفريقين من خيوط متينة وصلات محكمة . على ان الاحداث المتتابعة والظروف الطارئة منعتني حتى الان من القيام بهذا الواجب على الوجه الصحيح الذي ارغب فيه . ولكم آسفني واثار المي ان يبلغني نعي نسيب عريضه ولا اكون قد تعرفت بشخصيته النبيلة الموهوبة واديت لها ولنفسي واجب الاتصال الروحي والقومي . واستمددت من معينها الصافي القوة والغنى والجمال .

فلا اقل اذن من ان ابادر الى هذا الواجب في هذه الحفلة التي نظمها اخوان النسيب فاشترك واياهم في احياء الذكرى . لا لمجرد تمجيد شخص كانت نفسه تعلو به ابداً عن التمجد . بل للمساهمة في نشر المعاني السامية التي انطوت عليه حياته تنويراً لنا افراداً ومجموعا في سبيلنا الوعر الطويل الى الحياة الصحيحة الراقية . ويسرني ان يكون اشتراكي هذا — بصفتي الرسمية فانقل اليكم كلمة سوريا في اديبنا الموهوب الذي تفخر سوريا بانه نبت من ارضها ومشى على ضفاف عاصيها وانه هبة من هباتها الى العالم الجديد .

لقد عبرت حياة نسيب عريضة عن نفسها بانتاج متعدد النواحي كان شاعراً مجدداً حاول واخوانه ادباء الاندلس الجديدة فك قيود التقاليد التي كانت تقعد بالشعر العربي عن اداء رسالته الحقيقة وكان مع ذلك عالما باسرار العربية ومطلعا على الجيد من تراث العرب الادبي . فلم يلق بهذا التراث عرض الحائط . بل عمل لاطلاقه من اسره كي يرتفع الى مستوى اسمى وجو انقى ، وكان فنانا موهوبا تراءت له صوراً جميلة فاخرجها بقالب لفظي جميل فجاءت تستهوي النفس وتكشف لها عن عوالم جديدة . عوالم صفاء ونور وجمال .

على اني لا اود ان اقف بكم الليلة عند هذه النواحي الادبية والفنية من انتاج النسيب فسواي من الادباء اقدر مني على بيان فضله فيها . وانما اود ان استعرض واياكم في هذه الدقائق القليلة المتاحة لي الناحية التي اعتبرها الاهم من حياة الفقيد . لانها تتضمن خير القيم والمعاني لنا في حياتنا الحاضرة . واعني بها الناحية الانسانية .

اني ادعوكم الى التأمل في هذه الناحية لان كل انتاج عملي او فكري يقاس آخر الامر بقدر ما ينطوي على حقيقة هذا المخلوق الغريب الذي ندعوه الانسان . وبقدر ما يساهم في صقل الجوهر الانساني الذى هو العقل والروح في نموهما الدائم فهل في ادب عريضه ما يكشف لنا عن وجه من وجوه الحقيقة الانسانية ويعمل في صقل جوهرها وترقيته .

اجل . ان عريضة قد لحظ وجها من اهم وجوه هذه الحقيقة هو ان الانسان في طبيعته حيوان مجاهد لقد علمنا الفلاسفة ان

الانسان حيوان ناطق فنبهوا الى ميزته العظيمة . وجاءت الاديان فجعلت الانسان اسمى خلائق الله واكدت ميزته الروحية . ولكننا نخطىء كل الخطأ اذا اعتقدنا ان هذه الميزات العقلية والروحية تهبط من عل ، او توهب هبة رخيصة . ذلك ان مادتها المغروسة في جوهر الانسان لا تتحقق وتخرج الى حيز الفعل الا بقدر ما يجاهد الانسان في سبيلها ويبذل من اجلها عصارة قلبه ونفسه . هاكم تاريخ البشرية منذ اقدم عصورها الى وقتنا الحاضر . انه ليدل باجلى بيان على ان كل انتاج ايجابي دخل في لب الحضارة انما هو وليد هذا الجهاد . ومقدور بقدره لا اكثر ولا اقل .

والجهاد نوعان : جهاد خارجي في سبيل اصلاح المجتمع . جهاد في سبيل استخراج موارد الطبيعة وتوزيعها على البشر . جهاد في تربية النشء وتنظيم العائلة والبلدة والدولة . جهاد في تحرير القوم من الاستعباد والاستعمار ومن الفقر والجهل والعار . جهاد في جمع شمل الانسانية واشاعة روح الاخوة والمساواة فيها

لم يكن نسيب عريضه مجاهداً من هذا النوع لقد شعر بما في محيطه من مفاسد اقتصادية واجتماعية فتألمت نفسه الحساسة منها وعبر شعره عن هذا التألم . وعن الشكوى مما رآه حوله من اندفاع نحو المادة وانصراف الى الصغائر . وعن وحدته في مجتمعه وغربته بين الناس . ولكنه لم يثر على هذا المجتمع ثورة من يريد اصلاحه مهما كلفه الامر . بل انكمش عنه وسار في طريقه يفتش عن الحق ويسعى الى الجمال

وبلغه ما لحق قومه العرب من عسف وظلم وتألم لما سمعه من استكانتهم لذلك فصاح متمردا

كفنوه . وادفنوه . واسكنوه
هوة اللحد العميق
واذهبوا . لا تندبوه . فهو شعب
ميت ليس يفيق

ورن سمعه صوت جهاد فلسطين فاجاب قلبه

فلسطين سيرا الى المشنقه   فلسطين صعدا على المحرقه
وموتي فلسطين فالموت خير   فداء لحرية مطلقه

ولاح له ان الشاعر مدعو الى الاشتراك بهذا الجهاد فنادى بنفسه —

يا شاعر الاوطار   خلّ — الهيام
قم حطم القيثار   وانض الحسام
واصنع من الاوتار
قوسا لاخذ الثار
واخلع قميص العار
والبس ردا الجبار

على انه لم يسترح لهذا الرداء طويلا . ولم يشترك بكليته . او باكثره في هذا الجهاد . فانتاجه الادبي في هذا النحو قليل متقطع . ولم تكن طبيعته او ظروفه على ما يظهر من خلال آثاره — بحيث تدفعه الى ذلك الجهاد الخارجي وما يتطلبه من عنف في مقارعة الناس ومحاربة النظم والاوضاع .

لا اقول هذا انتقاصاً لفضله . فما هذا هو النوع الوحيد من الجهاد . وان كان هو الذي يجاب نظرنا ويستدعي قوانا في هذا الظرف الحاسم من حياتنا . انما هناك جهاد آخر . الجهاد الداخلي . جهاد العقل في تفهم الحقيقة . وفي تبديد الوهم ومصارعة الظن والشك .

الا استيقظي يا اشعة نفسي   ولو لدقيقه
وشقي حجاب دياجير رمسي   لالقى الحقيقه
ففي — جمود علي يثور
وشك بغير انتظام يدور
وليل يعم وليل يغور
ولج يضيء كبدء الخليقه

هو ذا جهاد نسيب عريضه ومثل جهاد العقل واعسر جهاد النفس في التطهر من اعلاق المادة . والتنقي من شوائب الطمع والحقد . والسمو عن التوافه والمبادىء . وتطلع النفس ابداً الى مثل عليا تسترشد بها في طريقها الشائكة الزلقة . وثمرات هذا الجهاد النفسي منتشرة في ادب شاعرنا . وهي دانية لمن يعرفها ويتذوق طعمها الشهي . والمجال هنا اقصر من ان نستعرض ما يفي منها فلنقتصر على بعض مقاطع من قصيدته الرائعة « يانفس »

يا نفس مالك والانين   تتألمين وتؤلمين
عذبت قلبي بالحنين   وكتمته ما تقصدين
الليل مر على سواك   افما دهاهم ما دهاك
فلم التمرد والعراك   ما سور جسمي بالمتين
عطش وجوع واشتياق   اسف وحزن واحتراق
يا ويح عيشي هل نطاق   نزعات نفس لا تلين

اجل . لقد جاهد نسيب عريضه هذا الجهاد الخفي العنيف . جهاد العقل والقلب والنفس ومع انه لم يصل الى نهايته . الى اليقين العقلي المتين والى الطمأنينة النفسية التامة بل ظل يتعقب في حيرة وتألم . فانه لم يحد عن العالم الاعلى . عالم الحق والخير والجمال . وما انفك يتوق اليه . ويحن لضيائه

ايه ضوئي البعيد لح ولح ما تريد
ليس طيفي بحيد عنك حتى يعود
لتراب ودود
لح ولح في الفضاء قد سمعت النداء
ودليلي الرجاء فمساه يقود
ظامئا للورود

في هذا الجهاد الذي لم ينته — واي جهاد ينتهي ؟ — ميراث من المكاسب العظيمة والروحية يجدر بنا ان نستمد منه ونعمل على تجديده وانمائه في نفوسنا افراداً وجماعات فيــه وبامثاله من المكاسب التي حققها الموهوبون والعامــلون في التاريخ . غنى لشخصيتنا وقوة لها في مصارعة الاحداث والسير في مضمار التقدم والرقي

ومن يتتبع مظاهر هــذا الجهاد في التاريخ البشري يرانه يزداد خصباً واثماراً بالاتفاق والمشاركة . فسالك هــذا السبيل يأنس باتفاقه في السير . يقوى بقوتهم ويطمئن بطمأنينتهم . يأخذ منهم ويعطيهم . وهو الكاسب على كل حــال — « ففي أخذه منهم كسب . وفي عطائه لهم كسب . لان هذا النوع من الغنى العقلي والروحي لا ينقص كالغنى المــادي بالعطاء . بل بالعكس يزداد وينمو كلما ازداد ونما العطاء . ففي المشاركة اذن نعمة لافراد يجمع بينهم تفاهم صاف واتفاق سليم . ووحدة في الغاية . وعزم صادق على المصاحبة والمبادلة

خبر نسيب هذه المشاركة الى حد عندما اجتمع وزملاؤه في هذه الديار وانشأوا الرابطة القلمية . وقد قربت هذه الرابطة بينهم ووحدت قواهم في سعيهم الادبي والروحي . وجعلت منهم مصدراً من مصادر الاشعاع لحياة عربية بدأت تخلع عنها ارداء الاجيال وتفتح عينيها للنور . ونحن اذ نجتمع الليلة لاحياء ذكرى نسيب عريضه يحسن بنا ان نقف ايضاً عند هــذا المظهر من المشاركة الادبية والروحية الذي تنم عنه الرابطة القلمية . فنسجل بالحمد والامتنان هذه المشاركة من ثمار يانعــة في ميادين الادب والفكر ونعرب عن اسفنا لانها لم تبلغ الى الحد الذي تؤمن به استمرارها وازديادها . وعن رجائنا في ان نحتفظ بمــا انتجت ونحمل على توفيره وزيادته بسعي فردي حثيث ومشاركة تزداد على الايام قوة وسعة وامتداداً .

هــذا هو الرجاء الذي يجب ان ينبعث من نفوسنا في هذا الدور الحاسم من حياتنا مغتربين كنا او مقيمين . لقد بذل ابناء العربية في هذه البلاد جهوداً صادقة في ميادين العمل واصابوا من النجاح قسطا يغبطون عليه . ولكن من الخطار ان ننسى ان كل نجاح من هذا القبيل لايترك اثراً الا بقدر ما يؤدي الى رعاية القيم الانسانيــة وتوفيرها . لعمري ان التاريخ لم يبق من آثار العرب الماضين في مهاجرهم المختلفة الا ما كان فيه سعي الى حق او نزع الى خير او تعبير عن جمــال . فبأي شيء يذكر التاريخ المقبل سيرة ابناء العربية في هذا الديار ؟ انما انشأوا من معامل ومتاجر وادارات ؟ لا . بل بقــدر ما انتجوا من قيم انسانية — فكراً وروحا — وبقدر ما وجهوا سعيهم المادي الى خدمة هذه القيم .

وكذلك شأن العرب في وطنهم الاصلي لقــد كان لهم في الماضي وزن بين الامم ما دامت نفوسهم تفيض ايماناً ، وعقولهم تنتج فكرا وما داموا يساهمون في بناء الحضارة . فلمــا انطفأت هذه الشعلة فيهم تواروا وذهب ذكرهم . وهكذا ايضاً سيكون حالهم في المستقبل . بهذا القياس سيقاسون . فيحكم لهم او عليهم ايها الادباء

لا يؤدي اجتماعنا الليلة غايته اذا اقتصر على تكريم ذكرى نسيب عريضه . فما نسيب بحاجــة الى تكريمنا . وقد كانت حياته كلها نفوراً من المدح والتكريم . وانما يتم الغرض الاسمى من هذا الاجتماع اذا اتخذناه مناسبة نتعاهــد فيها ونعاهد روح النسيب على السعي لاكتشاف المعاني السامية التي انطوت عليها حياته . نتعاهد ونعاهد لا على اتباع النسيب في جهــاده النفسي فحسب بل على ان نتقدم عليه . فليس يرضى منا — بسماحــة صدره وكرم نفسه — باقل من هذا . نتعاهد ونعاهد على ان نجاهد نفسنا وعقلنا . وان نبذل ما نحصله من قوة وثروة لمجاهدة مجتمعنا ومقاومة ما يطغى عليه من شرور الفساد . من استغلال فرد لفرد وطبقة لطبقة . وامة لامة

يا روح نسيب

استقري في عليائك راضية مطمئنة . نعاهدك على ان نسعى للتغلب على ما فينا من ضعف فردي وفساد اجتماعي . نعاهدك على الجهاد المزدوج . جهاد النفس وجهاد المجتمع . نعاهدك على المشاركه في هــذا الجهاد . وعلى السير به الى حيث نسلمه لمن بعدنا . سنخرج من هذا الحقل الذي اجتمعنا فيه لنتأمل خلجاتك في حياتك الدنيا . وكل منا متقو بك شاعر بغبطــة جديدة تربطه بسواه ينادي بعضنا بعضا

يا اخي يا اخي المصاعب شتى غير انا في سيرنا غير واحد
فلنسر . فلنسر . واما هلكنا قبل ادراكنا المنى والمواعد
فكفانا انا ابتدأنا وانا ان عجزنا فقد بدأنا نشاهد

واشنطن قسطنطين زريق



٣ تموز ١٩٤٦ – بعثت الحكومة الاردنية بمذكرة الى الامين العام لمنظمة الامم المتحدة تطلب قبولها عضواً في المنظمة .

٥ – اتفق وزراء خارجية الدول الاربع على مبدأ التعويضات الذي تقدمت به روسيا للحصول على مطاليبها من ايطاليا

اتفق وزراء الخارجية على دعوة الدول التي ساهمت فعلياً في الحرب لحضور مؤتمر الصلح الذي يعقد في ٢٩ تموز واعترض مولوتوف على اقتراح بيرنز لاشتراك الصين كدولة من الدول الخمس في توجيه الدعوة

٦ – عطلت فصيلتان اميركيتان اجتماعاً عقده ، ثلاثة آلاف شخص طالبين اشراك الجيش الاحمر في احتلال تريستا

٨ – وصل اللورد ستانسغيت الى الاسكندرية لاستئناف المفاوضات البريطانية المصرية

٩ – نشرت الحكومة اللبنانية نص المذكرات المتضمنة رأيها في نواحي لجنة التحقيق الاميركية الانكليزية

– بمناسبة الانتخابات التي ستجري قريباً يزداد التناحر الحزبي في تركيا عنفاً فقد وقعت حوادث دامية في ازمير واطنه

– قدم فان ايكر رئيس الوزارة البلجيكية استقالته للوصي على العرش

عارض حزب ترومان في عقد القرض البريطاني لاسباب شتى اهمها موقف لندن من الهجرة اليهودية

١٠ – انتقد سفيرا ايطاليا ويوغوسلافيا في الولايات المتحدة قرار وزراء الخارجية بجعل تريستا منطقة دولية .

– اتفق وزراء الخارجية على نزع سلاح المانيا .

انتهت المرحلة الاولى لاجلاء الجيوش الفرنسية عن لبنان

– غادرت نيويورك البعثة الوزارية الاميركية الموكلة بالمفاوضة حول تقرير لجنة التحقيق

١١ – طلبت الحكومة العراقية من بريطانيا واميركا والاتحاد السوفياتي ان يكون لها مقعد في مؤتمر الصلح

– قدم السيد شايلا وهو اول وزير مفوض لفرنسا في لبنان اوراق اعتماده الى رئيس الجمهورية

– القت الحكومة المصرية القبض على بعض العناصر الشيوعية ..

١٢ – اتفق وزراء الخارجية على عقد دورة خاصة يبحثون فيها القضية الالمانية .

– عقدت الوزارة البريطانية جلسة حضرها مونتغمري لبحث قضية فلسطين .

– اقام مولوتوف سداً منيعاً في سبيل المباحثات بشأن معاهدة الصلح النمسوية .

١٣ اختتم المؤتمر الثالث لوزراء الخارجية اعماله ولم يتفقوا في قضيتي النمسا والمانيا .

اصدرت المحكمة العسكرية في بلغراد حكمها بالاعدام على الجنرال ميخالوفتش .

وقع ترومان على الاتفاقية المالية الانكليزية الاميركية .

١٦ – دعيت ايطاليا رسمياً لتقديم ملاحظاتها على جعل تريستا منطقة دولية

– خطب المستر بيرنز عن نتائج مؤتمر الوزراء في باريس .

– وجهت سيام مذكرة الى الامم المتحدة تطلب فيها حل الخلاف الناشب بينها وبين فرنسا حول حدودها وحدود الهند الصينية

١٧ – طلبت الجامعة العربية من بريطانيا ان تعترف بها رسمياً وان تعتبر كل ما يذيعه الامين العام صادراً عنها .

نفذ حكم الاعدام بالجنرال ميخالوفتش

اجتاحت ايطاليا موجة من الاضرابات والجرائم توقفت على اثرها المصانع والمناجم والمواصلات .

١٨ – سافر اللورد كنفهام الى لندن للتحدث الى وزير المستعمرات عن الحالة الحاضرة في فلسطين

صرح ترومان انه ليس لديه مبرر ليطلب من الكونغرس التصديق على قرض يمنح لروسيا

صرح اينونو ان تركيا لا يمكنها تخفيض جيشها بالرغم من النفقات الباهظة التي تتكبدها الامة في سبيله ، نظراً للظروف الحاضرة .

انجز وكلاء وزراء الخارجية وضع مشاريع معاهدات الصلح مع ايطاليا وفنلندا والبلقان .

١٩ – صرح وزير الحربية الايطالية ان الجيش الايطالي سينظم على اسس ديموقراطية .

اصدر فرنكو امراً بالعفو عن مائة الف من المعتقلين السياسيين .

٢٠ – اكتشفت قيادة الشرطة عصابة خطيرة لاغتيال بعض الشخصيات السويسرية البارزة بينهم اعضاء الوزارة الحالية .

٢٢ – تلقت الحكومة الايطالية دعوة لارسال وفدها الى مؤتمر الصلح .

– ادى الانقلاب العسكري الذي حصل في بوليفيا الى مقتل رئيس الجمهورية وقد الف الثوار حكومة جديدة .

احرز الحزب الجمهوري التركي اغلبية الاصوات .

نسف اليهود قيادة الجيش البريطاني في فندق الملك داود في القدس وسقط نحو ثمانين قتيلاً من الضباط والجنود البريطانيين وبعض الفلسطينيين .

٢٣ – اعتقل البوليس الالماني الوزراء الثمانية الشيوعيين في وزارة بافاريا في حملته التفتيشية الفجائية .

– وصل الى الفاتيكان الوفد الفلسطيني العربي ليطلب تدخل البابا في القضية الفلسطينية

٢٤ – اصدر ترومان بياناً يشجب فيه ازهاق ارواح الناس في حادث نسف فندق الملك داود .

– قدمت مصر باسم الدول العربية مذكرة الى الامم المتحدة بشأن اقامة عهد جديد في فلسطين يتفق ومبادىء الميثاق .

٢٥ – دعت الحكومة البريطانية الجامعة العربية الى مؤتمر يعقد في آب بلندن لبحث قضية فلسطين .

وصل الى بغداد الامير عبد الاله الوصي على عرش العراق قادماً من لندن .

٢٦ – رفعت لجنة الخبراء الانكليزية الاميركية – الموجودة حالياً في لندن تقريرها عن قضية فلسطين

– صدق مجلس الوزراء البلغاري مشروع قانون باجراء استفتاء عام حول الغاء الملكية واعلان الجمهورية في بلغاريا .